١٠٢٧
روايات عبير
Harlequin
سلسلة قصص رومانسية
٢٠٠٢
دار النخاس

القدر المشؤوم

سارة وينتوورث

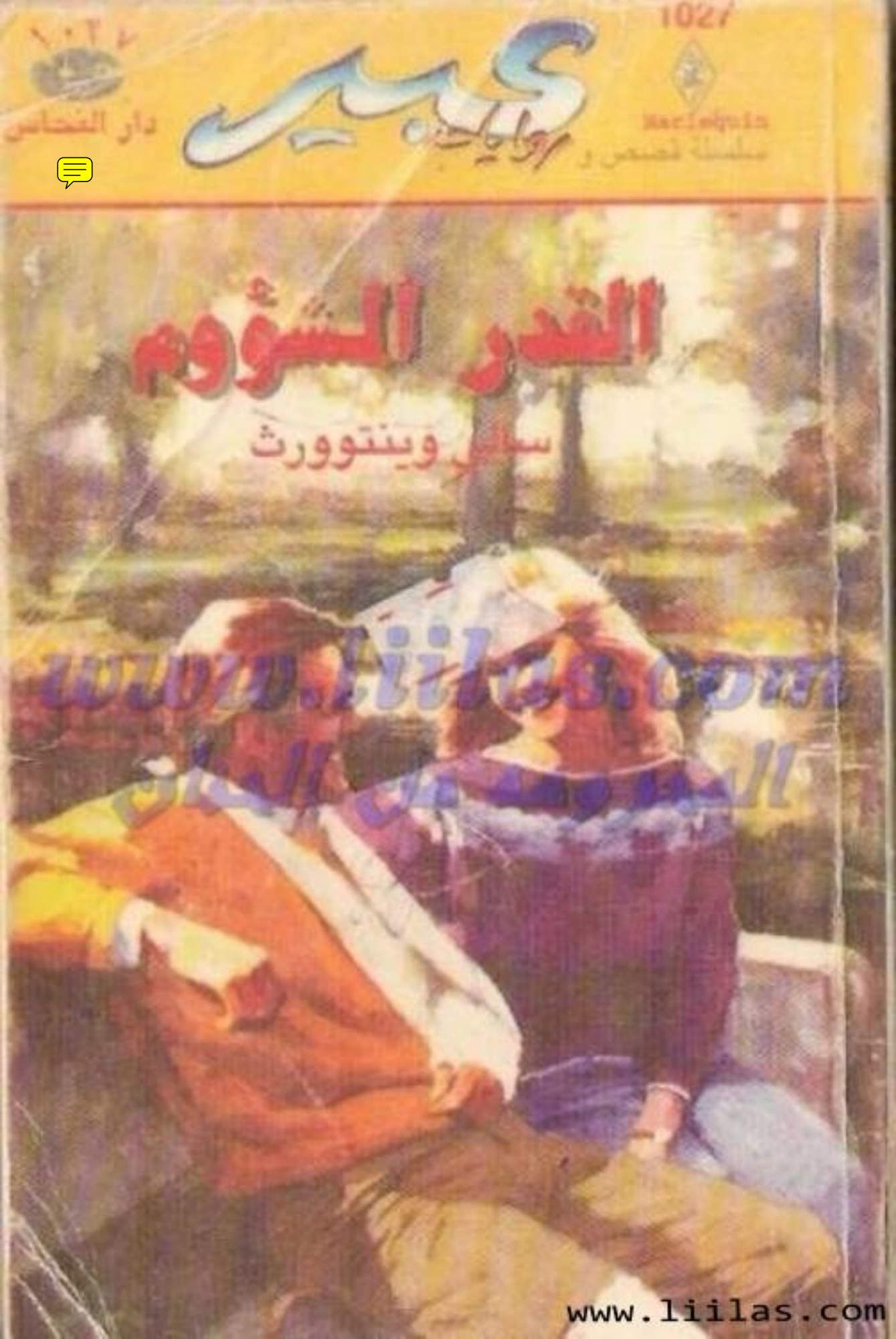

www.liilas.com

القدر المشؤوم

سالي وينتوورث

أصبح عالم جانسي حطاماً

لم تكن قد بلغت الثالثة والعشرين من العمر... وكانت مصابة بمرض السرطان. وهكذا، ستنتهي مهنتها كعارضة أزياء ناجحة، وتنتهي خطوبتها لدانكن.

دانكن كان رجلاً شريفاً، [illegible]

[illegible] وأصبحت نصف المرأة التي رغب فيها. وإذا [illegible] عليها الحصول على حب دانكن، فهي [illegible] تريد شفقته.

وهكذا هربت جانسي إلى يوركشاير، آملة أن ينساها دانكن. ولكنها سرعان ما أدركت أنه ليس بالرجل الذي يستسلم بسهولة...

www.liilas.com
البيروت من الجنان

www.liilas.com

حاولت جانسي أن تفكر بايجابية

لكنها، مهما حاولت بجهد أن تفكر في المستقبل... لم تستطع غير التفكير في الماضي. واستمر الماضي يعاود بالها، خاصة في اللحظة التي رأت فيها بشاعتها في عيني دانكن.

ربما كان عليها أن تخبره، تاملت مفكرة، وتعطيه فرصة أخرى. ولكن دانكن سيتابع الطريق ويتزوجها... بدافع من الشفقة، على الأرجح، لا بدافع من الحب. هل عليها أن تراقبه وهو يشيح عينيه عنها، بدلاً من أن يتمتع بالنظر إليها؟

كان الأمر مجازفة، لم تكن جانسي مهيأة للقيام بها.

www.liilas.com

الفصل الأول

لدى خروجها مع صديقتها فيكي من محطة تيوب نظرت جانسي إلى الأعلى، فقد كان هناك منطاد عسكري يطوف في السماء، فانعكست أضواء المساء على واجهته الفضية وبدا كمرآة ضخمة بيضاوية الشكل. وحثت فيكي وهي تقول لها: «انظري.» توقفتا لدقيقة، تنظران إلى الأعلى باعجاب، ثم أسرعتا نحو الطريق المؤدي إلى قاعة الرقص. كان هناك أكياس من الرمل لحماية المكان، حيث وقف رجل من الشرطة العسكرية يحرس المدخل.

«مساء الخير، أيتها الآنسات.» وتأمل ببزّتيهما العسكريتين الزرقاوين وتابع: «إن شباك تذاكر القوات العسكرية، إلى اليسار.»

اشترتا تذكرتيهما وتوجهتا نزولاً في ممر ضيق عبر بابين، لتدخلا في عالم جديد يضج بالأضواء الساطعة. والموسيقى، إنها قاعة فسيحة تسمى بقصر الرقص. وعلى الجهة الشمالية من القاعة كانت فرقة الجيش الموسيقية تعزف آخر ألحان المؤلف غلين ميلر وبجانبها مطرب معروف بدا منشغلاً بتوقيع اسمه للمعجبين والمعجبات. دهشتا لهذا العدد الهائل من الناس، فقد شُغلت جميع طاولات القاعة، وازدحمت ساحة الرقص، كما وقف على جوانب المكان، عدد لا يستهان به أيضاً.

وقفت الفتاتان قرب مدخل القاعة وهما ما زالتا تتأملان هذا

www.liilas.com

الجمع الضخم. «أكثر الناس، يرتدون البزّات العسكرية.» ألمحت فيكي وتابعت تقول: «حتى الممرضات.»

«آه، أنا سعيدة لأننا ارتدينا بزتينا أيضاً. هيا لنفتش عن الأصدقاء، وأغلب الظن أنهم في المكان المخصص لبيع المشروبات.»

وشقتا طريقهما وسط الازدحام، ونظرات الاعجاب تلاحقهما بتطفل. إنهما طويلتان، نحيفتان، تتحركان برشاقة وثقة. وبدتا في غاية الجاذبية والجمال، في بزتيهما العسكريتين هاتين.

«إنهم هناك.» أشارت جانسي وهي تدور نحو فيكي، فاصطدمت برجل يحمل كؤوس الشراب.

«انتبهي!» ولكن، سقط الشراب فوق بزّته العسكرية.

«آه، آسفة!» قالت له جانسي بسرعة، وشاهدت ثلاثة أزرار على كُم بزّته العسكرية، الزر الأوسط أصغر حجماً من الآخرين، يفهم من ذلك أنه قائد أسراب في الجيش، وعلى صدره الأيسر، جناحا طيار. وعادت تقول: «آسفة، يا سيدي.»

قال القائد لها باستهزاء. «الحمد لله أنك لست من سرب الملاحة.»

حدقت جانسي في وجهه بدهشة، وأعجبها وجهه النحيل اليقظ وعيناه الرماديتان اللتان تشعان بالحيوية. وكان من المستحيل أن تتفرس في وجهه أكثر، لأن فيكي أخذت تحاول سحبها لتنضم إلى الأصدقاء. فالقت عليه تحية متواضعة وسمحت لنفسها بالابتعاد عنه.

عدد الأصدقاء الذين انضمتا إليهم هو ستة، أربعة رجال وفتاتان وكان الرجلان اللذان انتظرا جانسي وفيكي، بالرداء

www.liilas.com

الكاكي، وسرعان ما بدأوا بالرقص جميعاً، وتبادلوا الرقصات مع بعضهم البعض. ومضى الوقت بسرعة وهم يثرثرون ويشربون المشروبات وسط هذا الجمع الغفير. فليس من السهل أن تعثر على صديق داخل هذه القاعة المزدحمة. توقف العزف الموسيقي ليفسح المجال أمام قارع الطبل في عزف منفرد، فكان من المستحيل متابعة الرقص على هذا الإيقاع. وقفت جانسي جانباً، على بعد خطوات من قائد الأسراب الجوية، من دون أن تلاحظ وجوده، لكنها انتبهت إلى أن أحداً ينظر إليها فحولت رأسها، فاصطدمت نظراتها بعينيه الرماديتين، فابتسمت له قبل أن تحول نظرها نحو عازف الطبل وهي تصفق للإيقاع العذب باعجاب.

لكن بعد ذلك، نظرت إليه عدة مرات.

هو الآخر كان برفقة مجموعة من الأصدقاء يرتدون بزات عسكرية مختلفة، ولاحظت أنه يراقص بعض الفتيات، وشعره الأسود يلامس بزّته تقريباً، لكنه طويل بعض الشيء ليكون موظفاً في الجيش.

وفي تمام الساعة التاسعة والنصف، توقف العزف لاستراحة قصيرة. وصرخ أحد الحضور: «إنهم يبيعون النقانق الأميركية.» وأسرع بعض الرجال لينضموا إلى الصف الطويل بغية شراء النقانق الأميركية. ودخلت جانسي إلى غرفة السيدات، وعند عودتها كان الجمع في القاعة في حالة ذعر شديد، فقد انطلقت صفارات الانذار بشكل قوي وسمع صوت انفجار قنبلة في الخارج.

«إحموا أنفسكم! إحموا أنفسكم!» صرخ الحارس وهو يدخل القاعة بينما أصداء القذائف تنطلق بغزارة في الخارج.

www.liilas.com

ارتبكت جانسي ولم تدرِ ماذا يجب عليها أن تفعل، ولم تشعر إلا ويد رجل تنتشلها وتسرع بها وسط الجمع الخائف المضطرب، الذي يفتش عن مكان آمن، ووصلا إلى جهة معينة من القاعة، حيث دفعها بقوة تحت إحدى الطاولات، وهما يلهثان بمرح. وأخذت جانسي تشكر منقذها، وهي تلاحظ لباسه العسكري وعينيه الرماديتين مرة ثانية.

«أشكرك، من الواضح أنك معتاد على هذه الأمور.»

قال بنوع من الجبن المصطنع: «عندما يقول أحد ما، إحموا أنفسكم، لن أقف حائراً متردداً.»

«وهل بهذه الطريقة حصلت على رتبتك؟» قالت وأصابعها تلامس شريطاً فوق صدره.

وأشار نحو المكان الذي وقفت فيه بين الأصدقاء وهو يقول: «أراك تميلين إلى أصدقاء أميركيين.»

«ليس بالضبط.» وسمع صوت انفجار آخر في الخارج، فوضعت يديها فوق أذنيها. وأخذ دخان الانفجار يخترق القاعة، فصرخ الحارس يأمر الناس بوضع القناع الواقي ضد الغازات فوق وجوههم. «الانفجار قريب، كم من الوقت تستغرق عادة هذه الغارات؟»

«لن تدوم طويلاً، أرجو أن لا تكونين خائفة.» سألها وهو يضمها بذراعه.

ابتسمت جانسي مطمئنة لوجوده بقربها. «أين قناعك الواقي؟»

«أضعته منذ سنوات، في المناسبة، ألن تطلعيني على اسمك؟»

رفعت حاجبيها وقالت: «هل هذا أمر، يا سيدي؟»

«بالتأكيد.»

«في هذه الحالة، اسمي جانسي، جانسي بروس.»

«بروس... يبدو لي أنه اسم اسكوتلندي.»

«أظن ذلك لكن منذ أجيال عدة هاجرت عائلتي عبر الحدود الجنوبية.»

نظرت جانسي إليه بتساؤل وكأنها تسأله عن اسمه، فقال لها: «اسمي دانكن ليل ولست اسكوتلندياً، ولكني أحتقر هذا الاسم الذي أطلقه علي أحد أصدقاء والدي.» وتابع يقول وهو يتفرس وجهها: «أرى أن هناك أشياء تربطنا ببعضنا بعضاً.»

وأخذت سحب الدخان تزحف إليهما، وسعلت جانسي باختناق. «إن الأمر يزداد سوءاً، من الأفضل أن تضعي القناع الواقي.» اقترح دانكن وهو يشير إلى حقيبة صغيرة تعلقها جانسي فوق كتفها.

تأسفت جانسي وقالت: «في الحقيقة، إني أستعملها كحقيبة يدوية.»

ضاقت عينا دانكن وقال: «أستطيع أن أبلغ عنك لهذا الاهمال.»

سألته بحنان: «وهل ستفعل ذلك؟»

«لو استطعت اقناعي، قد أعدل عن هذا الأمر.»

«ما الذي أستطيع فعله؟»

«سأفكر بشيء ما.»

«آه، أرجوك، يا سيدي.» قالت بخوف مصطنع. «أنا لست سوى مجندة بسيطة، فأرجوك، لا تورطني بأي مشكلة، فقائد كتيبتي يشبه آلة حرب قديمة.»

ضحك بمرح وهو يرفع قبعتها التي أخفت شعرها

www.liilas.com

الكستنائي، فسقطت خصلات منه فوق خدها. «أرجو أن يكون مزاجك هادئاً مثل هدوء عينيك الخضراوين وشعرك الأحمر المسترسل، على العموم أشعر بالأسف تجاه القائد الذي تسمينه آلة حرب قديمة.»

سمعت الطلقات النارية تعنف وتشتد في الخارج لفترة من الوقت، وبعدئذٍ توقفت ولم يعكر صفو الهدوء الذي غمر الأجواء سوى قرقعة طائرة تهوي نحو الأرض. هذا الصوت صمّ آذانهم فشدها نحوه وكأنه يحميها، ودوى صوت تحطم الطائرة واصطدامها بالأرض. عمّ السكون القاعة لبرهة من الوقت، بعدها وكأن شيئاً لم يكن، عادت الفرقة الموسيقية تعزف الألحان الراقصة. «إنها دورية الجيش الأميركي.» صرخ أحد الحضور بفرح. وأخذ الجميع يخرجون من الأماكن التي التجأوا إليها.

ساعد دانكن جانسي للخروج من مخبئها. «هل تسمحين لعنصر في القوات البريطانية أن يراقصك؟»

ترددت قليلاً أمام منقذها، ثم قالت: «ولم لا؟»

وأخذ يراقصها برشاقة بالغة وبخطوات سريعة، يتأرجح بها من مكان إلى آخر، وهي تضحك بسعادة. وعندما أنهت الفرقة عزفها، ترك يده على خصرها، وجذبها نحوه فيما الموسيقى بدأت تعزف لحناً هادئاً. وأطفئت الأنوار وهو يقول لها: «هل مركز كتيبتك في لندن؟»

«نعم.»

«هل أستطيع مرافقتك إلى هناك؟»

«وماذا عن مرافقي؟»

«آه، من دون شك يستطيع العودة وحده.»

www.liilas.com

ضحكت بابتهاج وقالت: «ولكني لا أعرفك.»

«نحن في حالة حرب.» أشار دانكن. «وقد أُقتل غداً.»

قالت وابتسامة ماكرة ترتسم على وجهها: «آه، كم مرة سمعت مثل هذا الكلام.»

«لا بد وأنك امرأة قاسية القلب، ولا أعلم كيف أستدر عطفك.» ورفع حاجبه بخبث. «فما رأيك بهذه؟» وانحنى باتجاهها وعانقها.

«أحب كثيراً أن أرافقك إلى ثكنتك، يا جانسي.»

«أنا... أنا برفقة صديق.»

هزّ رأسه بعناد ليقول: «لا أريد أعذاراً، فباستطاعتي أن آمرك بتنفيذ ذلك...»

«طبعاً، ألست القائد وعليك اصدار الأوامر؟ حسناً، لك ما تريد.»

رقصا طوال الظهيرة، وتركته جانسي لتذهب وتعتذر من رفيقها الأول الذي لم يكن مسروراً طبعاً، على العموم إنه ليس صديقها، بل أحد أفراد المجموعة التي ترافقها دائماً، وقد اشترت تذكرة الدخول بنفسها، بينما الصديق عادة يدعو صديقته ويدفع ثمن تذكرتها، لذلك لا شأن له معها.

كانت فيكي تستمع إلى حديثها فسحبتها من يده وهي تقول: «هيا لنذهب عند السيدات.»

«أعرف ما تريدين قوله.» قالت جانسي بعد أن أصبحتا على انفراد. «تريدين القول بأنك لست مطمئنة له ولا لمرافقتي إلى خارج هذا المكان، ولكنه يعجبني، إنه فعلاً... فريد من نوعه.»

«هل تعنين بأنك موافقة؟» لم تجب جانسي بل أومأت برأسها وتابعت فيكي تقول: «أنت حقاً مجنونة! أنت لا

www.liilas.com

تعرفينه جيداً. أعطني وعداً بأنك لن تسمحي له بمرافقتك.»

«فيكي! أنا لست طفلة. لقد أصبحت بعمر يناهز الثالثة والعشرين، وأعلم جيداً ماذا أريد.»

«قلت الكلام نفسه عند مقابلة آخر رجل، ألا تذكرين ما حدث لك عندئذٍ وانقلب الأمر إلى كارثة رهيبة، إنسه، يا جانسي.»

«لا ـ لست أدري. إنه مختلف تماماً.»

«آه، يا إلهي، ليس مختلفاً! أظن أنك تسعين إلى جلب المتاعب.»

ضحكت جانسي وقالت: «لا تكوني سخيفة. سأكون بخير.»

عادت لتنضم إلى دانكن الذي كان ينتظرها في زاوية القاعة ويده في جيبه. وأخذ يتحرك بنشاط وحيوية، فتوقفت لتتأمل قده الممشوق، ونظراته الطيبة الحنونة. لا بد وأنه في الثلاثين من عمره، أو أكثر بسنة أو سنتين. إنه يوحي بالثقة والمحبة وتساءلت عن عمله في الحياة، ثم قررت بينها وبين نفسها أن تسأله عندما تسنح لها الفرصة بذلك.

كانت الموسيقى تعزف الألحان السريعة التي حاول الكثيرون متابعتها بخطوات مماثلة. فرفضت جانسي مشاركتهم هذا الرقص المتعب.

«عظيم، لنشرب أي شيء إذاً.»

وبينما كانا يحتسيان بعض المشروب سألته: «هل ستسافر الليلة؟»

«كلا، ولكني سأكون مشغولاً جداً غداً.»

«ما هي مهنتك... في حياتك المدنية؟»

«أعمل في شركة تجارية، وأنت؟»

ترددت قبل أن تجيب: «أعمل كعارضة للأزياء.»

أخذ يحدق بجسدها، ودهشت حين قال لها: «لدي فكرة، أظن أنك متناسقة الأطراف تحت هذا الرداء العسكري الأزرق، وأنا أمارس فن الرسم، وأقضي وقتاً طويلاً في معهد لرسم الشكل الانساني.»

«أنت فنان إذن؟»

هزّ رأسه بامتنان وأجاب: «إنها هواية فقط، فليس لدي وقت كافٍ لممارستها باحتراف كما أريد.»

«بسبب الحرب، على ما أظن.»

أجاب دانكن: «آه، نعم، الحرب.»

كانت الساعة قد أشرفت على الواحدة صباحاً عندما غادرا المكان. ختمت الفرقة الموسيقية سهرتها بأغنية ستلتقي مجدداً وخرج الراقصون والراقصات بنشوة واضحة. ودّعت جانسي أصدقاءها وتلقت تحذيراً آخر من فيكي، لكنها لم تصغ إليها، بل عادت إلى حيث كان دانكن في انتظارها.

أحاط خصرها بيده ومشيا معاً خارج قاعة الرقص، إلى سكون الليل حيث النجوم تتلألأ في السماء الصافية. «لقد أوقفت سيارتي هناك.» قال دانكن وهو يرشدها إلى مكان سيارته.

وعند قارعة الطريق، التفتت جانسي إلى الوراء، حيث ما زالت أكياس الرمل خارج باب قاعة الرقص، وتوجد فوق الأكياس لوحة مضاءة كتب عليها: قصر هامر سميث. وبجانبها كتب ملاحظة كبيرة: الليلة احتفال بمناسبة الذكرى السنوية... الحضور بالثياب العسكري.

كانت سيارة دانكن من نوع الجكوار. استقلت جانسي السيارة لتجلس بارتياح على المقعد وقذفت بقبعتها إلى الوراء وهي ترشده إلى عنوانها في كنزينغتون. قاد سيارته

www.liilas.com

في شوارع لندن ولم يكن بحاجة إلى أي توجيهات وهو متجه نحو منزل جانسي. تذكرت تحذيرات فيكي وهي ترمق ملامحه الرقيقة وتساءلت هل تدعوه إلى كأس من الشراب. هل تتجاهل هذا الأمر، أو تفسح المجال لما ينتظرها من مفاجآت.

لقد قابلت العديد من الرجال، ولكنها لم تشعر بهذا الشعور الذي يعتريها الآن أمام دانكن. قد يكون حنينها إلى الوطن في ظروف الحرب هذه أثار حساسيتها اليوم، فهي تؤمن بالمثل القائل: «عش يومك وكان غداً غير آتٍ.» إذاً يجب أن تكون هناك رغبة للحياة، ولا وقت لإضاعتها، وأن تقرر بسرعة أين تصب مشاعرها وتسعد نفسها قدر المستطاع.

توقفا عند إشارة المرور، فالتفت دانكن نحوها وقال: «بماذا تفكرين؟» وقد لاحظ مدى انشغال خاطرها.

«أفكر بالحرب. أدرك تماماً أننا قد مررنا في ظروف بشعة... لكنها قد تكون ممتعة في بعض الأحيان ولبعض الأشخاص.»

استطرد دانكن: «ومن يدري ما ستكون النتيجة وما هي النواحي السلبية التي قد تظهر في صحتنا أو في نفوسنا اليوم.»

انطلقا مرة أخرى بعد أن تغيرت إشارة المرور من الأحمر إلى الأخضر، نحو شقة جانسي التي أشارت له أين يوقف السيارة، لكنها لم تترجل منها وسألته: «كيف حصلت على بزّتك العسكرية؟»

«إنها تخص عمي الأكبر، والظاهر أنه عانى من الحرب آنذاك، فقد تعرض للقتل ثلاث مرات، إلى أن اشترى هذه البزّة سنة ١٩٤٣.»

«أجنحة الطائر التي على البزّة تخصه إذن؟»

«نعم، والميداليات أيضاً.» ورفع يده يتفحص الميداليات فوق سترته. «وأظن أنه موافق على استعمالي لهذه البزّة... خاصة أنها قادتني للتعرف إليك هذه الليلة. فقد كان شهماً مع الفتيات دائماً.»

«وهل أنت أيضاً كذلك؟»

«هذا يتوقف على نوع الفتيات.» ورفع يده ليلامس خدها الناعم، وقال لها بلطف: «هل ستلقي تحية المساء هنا... أم ستدعينني إلى كأس من الشراب؟»

سألته جانسي متفحصة: «من أجل كأس فقط؟»

ونكس رأسه ليقول: «نعم، من أجل كأس فقط.»

لم تكن شقتها شقة نسائية صرفة. فقد كانت في الأساس [illegible] صيق المساحة، فهي مؤلفة من غرفة جلوس من الجهة الأمامية، وغرفة نوم ومطبخ صغير يكاد لا يتسع لها من الجهة الخلفية ولم تكن جانسي بحاجة إلى أكثر من هذا، خاصة وأن موقع الشقة حسن فهي قريبة من السوق التجاري ومن صالة البرت هول الموسيقية، كذلك قريبة من محطة تيوب للمواصلات وأيضاً من حديقة قصر كنزينغتون التي تشعر جانسي بجمال الطبيعة خلال تواجدها فيها.

أخذ دانكن ينظر في محتويات الشقة وهو يقترب من مجموعة من اللوحات الزيتية فوق أحد الجدران فقال لها: «هل انتقيت هذه اللوحات بنفسك؟»

«نعم، لقد اشتريت معظمها من المعارض، ولكن اثنتان منها، من السماسرة.»

www.liilas.com

«تتمتعين بذوق رفيع، وتعرفين جيداً كيف تستثمرين أموالك.»

أعجبها مديحه، لكنها أصبحت معتادة على مديح الرجال لها، بحكم مهنتها كعارضة أزياء، وأصبحت هذه الأمور تدخل الملل إلى نفسها. إن مهنتها تفرض عليها أن تبدو أنيقة وجذابة. ولكن تدرك أن جاذبيتها تكمن في شعرها وقوامها الممشوق، فهي لا تتمتع بوجه جميل، لها أنف معقوف بعض الشيء، وفمها يتسع كثيراً عندما تبتسم وهي دائمة الابتسام. لكنها طويلة نحيفة الجسم تقوم بتمارين كثيرة للحفاظ على مظهرها المتناسق. فهناك، دائماً عمل للفتيات اللواتي يتمتعن بشعر جميل وقد ممشوق وابتسامة جذابة.

ابتسمت وهي تقول لدانكن: «شكراً، أظن، ومن دون شك، أنك تفهم جيداً باللوحات الزيتية.»

«إنه أحد المواضيع التي تدرسها في كلية الفنون.»

«آه، طبعاً. لقد أخذنا الحديث ونسيت أن أسألك، ماذا تحب أن تشرب؟»

فاجأها وهو يقول: «فنجاناً من القهوة، لو سمحت.»

لحق بها إلى المطبخ وهي تعد القهوة. «لم تقولي لي بعد، هل أنت عصبية المزاج؟»

ضحكت جانسي وهي تقول: «لا أمر بظروف حرجة تدفعني إلى الغضب.»

«لا أظن ذلك أيضاً، ما هو نوع عملك بالضبط؟»

«كل الأنواع تقريباً، عرض الأزياء والصور الفوتوغرافية، أي شيء أستطيع الحصول عليه، كذلك فيكي، الفتاة التي كنت

برفقتها هذا المساء.» وكانت قد أنهت تحضير القهوة فأعطته فنجانه وعادا إلى غرفة الجلوس.

قال دانكن وهو يستريح في مقعد قريب: «وهل توافقين على رسم الفنانين لك؟»

هزت رأسها. «لا، على العموم لم يطلب مني ذلك.»

«وإذا طلبت منكِ ذلك، هل توافقين؟»

«هذا يتوقف على...»

«على ماذا؟»

قالت بحذر شديد: «على طريقة توجيهاتك لي... وفي ما إذا كان باستطاعتك تحمل أعباء هذا الثمن.»

ابتسم دانكن ليقول: «لقد قطعت مرحلة رسم العراة، أرجو ألا تسيئي الظن بي، فأنا لست من ذلك النوع.»

«من أي نوع أنت إذاً؟»

«آه، لا يوجد نوع محدد، فكل الرسومات التقليدية تستهويني، كالرسم الفوتوغرافي، ورسم المناظر الطبيعية على اختلافها، كما أرسم بعض القطع الواقعية والتي لا تمت إلى الخيال بصلة. سوف ترين أعمالي يوماً وستلمسين مدى تأثرك بها.»

كان في صوته رنة هدوء وثقة بأنهما سوف يتقابلان كثيراً في المستقبل. وراقت الفكرة لجانسي وأخذت تتحدث وإياه عن الفن باختلاف أنواعه، يتعرفان أكثر إلى الأشياء التي يفضلانها والتي لا يفضلانها. واكتشفت جانسي أن محدثها يعرف أكثر بكثير مما تعرفه في هذا المجال. لم يكن يقصد أن يظهر لها بأنه على معرفة واطلاع واسعين في هذا المجال، فهو في أمور أخرى كتوم للغاية. لقد لاحظت مدى اهتمامه

www.liilas.com

وحبه للعمل الذي يقوم به. أعدت مزيداً من القهوة، وعندما أنهى دانكن فنجانه الثاني، نظر إلى ساعته، وكأنه لا يريد أن تنتهي هذه الجلسة ثم نهض. «علي أن أذهب؛ وكما قلت لك، أمامي يوم حافل غداً... أو بالأحرى اليوم.»

قالت بكسل وهي تنهض من على المقعد: «ما الذي ستقوم به؟»

«أنا مهندس معماري في شركة والدي، ولدي مقابلة مع أحد الزبائن في الساعة التاسعة والنصف في مكان قرب كانتوبري وإلا...» ابتسم وهو يمسك بيدها بلطف: «وإلا، كنت بقيت وأمضيت بقية السهرة في التحدث إليك.»

رفع يده فوق شعرها لينزع دبوس الشعر منه، فتهدلت خصلاته فوق كتفيها وفوق قسم من ظهرها. «أريد أن أرسمك، يا صاحبة الشعر النحاسي.» وأخذ يداعب خصلات شعرها وكأنه يقبلها بحنان.

ثم طلب منها رقم هاتفها بصوت مرتجف بعض الشيء وودعها قائلاً لها: «عدت مساءً.» وخرج بسرعة.

اتصل دانكن بها مساء اليوم التالي، يدعوها إلى العشاء خارجاً. لقد كان اللقاء الأول بينهما وتبعه لقاءات عديدة، ليكتشفا خلالها وبالتدريج أخلاق بعضهما البعض، وهما راضيان كل الرضى. ومع مرور الأيام، أزهر حبهما وتوطدت علاقتهما بروابط متينة ثابتة وأبدية.

كانا يعملان كل في مجاله، جانسي تنفذ عقوداً مسبقة في عرض الأزياء، ودانكن يعمل مع والده الذي يدفعه أحياناً إلى التغيب لأسابيع عدة، وقد اصطحبها مرة إلى شقته ليريها لوحاته. أما رسوماته ذات الأسلوب التقليدي، فقد كانت أغلبيتها

من النوع المائي، لكنها جيدة أو كما وجدتها جانسي على الرغم من خبرتها الضئيلة في هذا المجال. أما لوحاته التجريدية الحديثة، فكانت من نوع آخر. وقد كان هناك أنواع عديدة لأعمال سلفادور دالي استعمل فيها دانكن أشكالاً مألوفة معبرة، لكنها لم تصل إلى الكمال في اختيار الألوان المناسبة لها. كانت هناك صورة استعمل فيها الحجارة الصغيرة ليعبر عن مزاج معين طرأ عليه، ولكن، عندما يتمعن المرء بها يجد أن هذه الحجارة تشبه علباً مربعة الشكل، اصطفت بعضها فوق البعض الآخر، ولها نوافذ يطل منها أشخاص يطرقون على زجاجها محاولين الخروج منها.

«يا إلهي! ما الذي أوحى لك بهذه الفكرة؟»

«تلك المنازل الـ ـتارية التي تغطي مساحة كبيرة من البلاد، مئات من المنازل المتشابهة والتي حشرت في مساحة ضيقة.» والتفت إلى اللوحة بانزعاج ظاهر. «على العموم، لست مقتنعاً بها، أو لنقل إنني لم أصل بها إلى الغاية المرجوة، والشكل الذي أريده.»

كانت جانسي منحنية وهي تتفحص اللوحة عن كثب، فانتصبت واقفة لتقول: «يجب أن تستمر في محاولاتك، ولا بد وأن تصل إلى ما تبغيه.»

وأحاطها دانكن بذراعه ليقول لها: «لم يعد يهمني الأمر الآن.»

«لقد قلت لي مرة بأنك تريد أن ترسمني؟»

«وما زلت عند قولي. فهل تسمحين لي؟»

ابتسمت له بحنان، وقالت له: «نعم.»

«متى؟»

www.liilas.com

«متى أردت.»

ورسمها، ولكن ليس على طريقته التقليدية التي يعتمدها عادة، بل كما رأتها عيناه. رسمها على صورة شجرة. قدماها جذور راسخة في التراب، وركبتاها خطوط جذع الشجرة، وثيابها، قشرة الشجرة ذات اللون البني. ذراعاها غصنان مرتفعان، وخصلات شعرها متناثرة حول رأسها كأوراق خريف رائعة لوحتها الشمس. وأعطى جلدها لوناً بنياً كلون قشرة الشجرة، لم يغير شيئاً في تقاسيم وجهها، ولكنه أضفى عليه لمسة من المحبة فبدت كآلهة في غابة.

أمضى دانكن أسابيع عدة في رسم جانسي، ولكن عندما وقفت أمامه في المرة الأولى كعارضة، لم تخلع عنها الصدرية فبقيت ظاهرة تحت الوشاح البني، فعبس وقال: «اخلعي هذا الشيء.» وتقدم منها بانزعاج ليخلعها عنها بنفسه ثم عدل الوشاح كما يريده وقال: «هذا أفضل.»

«ماذا فعلت؟»

نظر إليها نظرة مبهمة ثم قال: «أنت لا تمانعين، هل أنت؟» وقبلها باعجاب ثم أردف: «أفضل رسمك على هذا النحو.»

تقدم نحو كرسي الرسم وبدأ عمله لساعات إلى أن تذمرت جانسي لشعورها بالم في ذراعيها. توقف دانكن وأخذها بيدها ليجلسها على كنبة وهو يمدح جمال جسدها وروعته.

دعاها دانكن للاحتفال، عندما انتهى من رسم اللوحة، فكان جزلاً فرحاً لأنه وجد أخيراً النوعية التي طالما بحث عنها، مدركاً بأنها أفضل ما رسمته يداه. وكانت المناسبة خاصة جداً، فتعشيا في مكان هادىء رائع أصبح في ما بعد مكانهما المفضل. ورقصا طوال الليل بنشوة عارمة.

عادا بعد تلك السهرة الرائعة إلى شقة دانكن وعادت جانسي تتأمل رسمها باعجاب، فأخذها بين ذراعيه وهمس في أذنها: «أحبك، يا ذات الشعر النحاسي، أحب وجهك الجميل، أتتزوجين مني، يا عزيزتي، أرجوك قولي نعم، أريد الزواج منك.»

دهشت جانسي ولم تستطع أن تقول نعم، لكنها صرخت بسعادة وفرح عبرت بهما عن مدى قبولها عرض دانكن.

«يا حبيبتي.» همس برقة وعذوبة. «يجب أن تقابلي عائلتي وعندئذٍ نعلن خطوبتنا رسمياً.» وتابع يقول باقتناع تام: «ذلك البيت القديم في كنت قد يكون رائعاً وملائماً لنا نحن الاثنين.»

قالت جانسي مستفسرة: «البيت القديم؟»

«كان منذ زمن بعيد يستعمل لتجفيف الأعشاب من أجل صناعة المشروبات.»

«نريدنا أن نعيش في أثون!»

ضحك عالياً ثم قال: «هذا غباء... هل تعلمين بأني معجب بك كثيراً؟»

«نعم، لقد لاحظت ذلك.» ودفعته عنها بلطف قائلة: «أخبرني المزيد عن ذلك البيت القديم.»

«إنه في مكان رائع في ضواحي البلاد، ويبعد عن كانتربري بضعة أميال ومساحته حوالى ألفي متر مربع. بحاجة إلى تعديلات كثيرة ليصبح بيتاً ملائماً، وسيعجبك كثيراً متى تمت هذه التعديلات فيه وخاصة إذا قمنا بها سوياً. هل تفضلين العيش في الضواحي أكثر من العيش في لندن؟ إنه من السهل الانتقال من هناك.»

«يبدو هذا الأمر رائعاً، فأنا أملك أيضاً بيتاً في الضواحي.»

www.liilas.com

وقرأت علامات الاستفهام في عينيه لكنها تابعت: «لم يخطر في بالك بأني أمتلك شيئاً، على كل حال، إنه كوخ صغير فوق تلال يوركشاير كانت تمتلكه عمة والدي، لم تتزوج بسبب وفاة خطيبها في الحرب، فاشترت ذلك الكوخ لتمضية الإجازات فيه، إنه على بعد أميال من أي مكان، تحيط به مناظر رائعة وتلال منحدرة تغطيها النباتات البرية، كان عليها أن تتركه لوالدي، لكنها حولته إلي بسبب طلاق والدي.»

«هل تذهبين إليه دائماً؟»

هزت جانسي رأسها نافية ذلك. «إنه بعيد عن لندن ولا أجد الوقت الكافي للذهاب إليه بحكم عملي.» وابتسمت متابعة قولها: «ولكن، قد نذهب إليه سوياً، وأظن أنك تتوافق وعمتي.»

لم يكن دانكن مصغياً تماماً إلى أقوال جانسي، بل كان محور اهتمامه جمالها الدقيق والمتناسق، وعندما حاول شد أصابعها بقوة صرخت بألم: «آسف لم أقصد إيذاءك.»

تعرفت جانسي إلى والد دانكن عندما أتت إليه لاصطحابه بسيارتها، حيث كانت سيارته معطلة، لكنها لم تتعرف بعد إلى والدته وشقيقته المتزوجة. إنهم يعيشون في شرقي في منزل رائع قرب نادي الغولف الذي كان محور اهتمام والد دانكن في أوقات فراغه. وتعيش أخته على بعد بضعة أميال مع زوجها الذي يعمل كمحاسب في إحدى الشركات. وفي أحد الأيام أخذها دانكن لزيارة عائلته. وكانت جانسي تجلس قربه متوترة الأعصاب، فقد لا يوافق والداه على زواجهما كونها عارضة أزياء، ويفضلان لابنهما الوحيد زوجة ذات مهنة أقل اختلاطاً بالمجتمع.

لم يكن قد أطلع عائلته على خطوبته من جانسي، لكنه قرر أن

يفاتحهم بهذا الأمر على مائدة الغداء. لكن والدته فهمت وبنظرة واحدة إلى ابنها السعيد، المسرور. لقد رحب الجميع بها وأبدوا تحمساً شديداً لزواجهما المقبل. وقالت السيدة ليلي بثقة: «لقد ظننت أن دانكن لن يعثر على فتاته المناسبة، ولكنني سعدت عندما التقى بفتاة طيبة مثلك.»

كانت سعيدة جداً لهذا اللقاء العائلي، حيث كانت أيضاً، أوليفيا شقيقة دانكن، وزوجها جاك، مع ابنتهما الصغيرة شانتال... والتي ألحت في أن تكون الإشبينة.

قالت والدة شانتال وهي تقاطع ابنتها: «قد تفضل جانسي أن تقوم إحدى قريباتها بدور الإشبينة.»

«لا إخوة ولا أخوات لي، لقد انفصل والداي عن بعضهما البعض وأنا في حداثة سني، ليتزوجا مرة أخرى من شخصين آخرين. هناك شقيقتان أصغر مني سناً من المرأة التي تزوجها والدي، ولم أشاهدهما سوى مرتين في حياتي. لذلك أكون سعيدة فيما لو كانت شانتال هي الإشبينة.»

وصفقت الفتاة الصغيرة فرحة: «حقاً؟ وما لون الثوب الذي سوف أرتديه؟»

ضحك الجميع وأجلسها دانكن فوق ركبتيه. «الوقت لم يعد بعيداً، يا صغيرتي، فعلى جانسي تنفيذ عقدٍ لها في اليونان كعارضة أزياء، كما أن علي بعض الأعمال في نيوزيلاندا، ربما يكون موعد زفافنا بعد شهرين تقريباً.»

وتبادل مع جانسي نظرات عميقة. كانت تعلم جيداً بأمر سفره إلى نيوزيلاندا ولكن الذي لم تعلمه جيداً هو اقتراب موعد سفره، فأخذ الشعور بالوحدة المتوقعة يغمر روحها وكذلك ألم الفراغ المسبق الذي بدأت تدرك أنها ستعاني منه في

www.liilas.com

كل مرة يضطران وبحكم عملهما إلى الانفصال عن بعضهما البعض لفترة من الوقت. ووقع نظرها على الطفلة التي تجلس فوق ركبتيه، ربما لن تكون وحيدة، فهي متأكدة بأن دانكن سوف يكون والداً مثالياً. ولكنها لا تريد أطفالاً قبل سنتين على الأقل، فهي تريد دانكن أن يكون لها في البداية.

وفي نهاية الأسبوع التالي، ذهبا إلى كنت، إلى البيت القديم، كان يوماً رائعاً من أواخر أيام الصيف، هادئاً وصافياً والطبيعة ما زالت على اخضرارها ولم تمتد يد الخريف إليها بعد. وتحولا عن الطريق الرئيسية إلى طريق فرعية حيث مرّا ببعض القرى الصغيرة والحقول الكثيرة العشب، إلى أن وصلا إلى مزرعة تحجبها بوابة حديدية اعترضت طريقهما. «من هنا يجب أن نواصل طريقنا سيراً على الأقدام.»

أمسك بيدها وعبر بها البوابة الحديدية ووقف يراقب ردة فعل جانسي لمشاهدتها البيت القديم للمرة الأولى. كان متهدماً بعض الشيء، ولكن أساسه ما زال ثابتاً، له برجان مستديران من حجر القرميد الأحمر فوق سقفين خشبيين مهترئين ونوافذ محطمة ومتصدعة.

«هل نستطيع الدخول؟ هل هو آمن؟» قالت بحماس شديد وهي معجبة بالمنظر الخلفي للبناء حيث السهول الشاسعة التي قد تزهر وتزهو في الربيع. وهناك، وعلى بعد مسافة غير قريبة، تظهر كنيسة من بين الأشجار.

«لقد فكرت بأن تكون غرفة الجلوس في الجهة الخلفية مزودة بحاجز زجاجي يمكّننا من التمتع أكثر بالمشاهد الطبيعية. سيكون المطبخ من الجهة اليمنى للبرج وفوقه غرفة وحمام للضيوف.» شرح دانكن وهو يخطط على ورقة هندسة

البيت الذي سوف يسكنانه في القريب العاجل بينما كانت جانسي تعطيه بعض الاقتراحات بحماس شديد.

أمسكت بيده منتبهة إلى شيء طرأ على فكرها.

«إننا لم نحصل عليه بعد، وقد لا يكون معروضاً للبيع.»

وضع دانكن القلم وراء أذنه ولفها بذراعيه قائلاً: «إنه للبيع، لقد عرفت ذلك في زيارتي الأخيرة لهذا المكان.»

«قد لا نستطيع تحمل أعباء ثمنه.»

«نستطيع، وقد دفعت الدفعة الأولى ثمناً له.»

«هل فعلت؟ ولكن متى؟»

«منذ ثلاثة أسابيع.»

«ولكن كان هذا قبل أن تعرض علي الزواج!» لم يبد أي اهتمام بما قالته. «لقد كنت واثقاً بأني سأوافق على طلبك، أليس كذلك؟»

احتضنها دانكن أكثر ثم قال: «الذي أعرفه أنني وقعت في حبك، وأريدك زوجة لي. عثوري على هذا المكان وقدرتي على شرائه، يبدوان بشرى حسنة لي للأيام القادمة. كنت أصلي دائماً كي يكون الشعور متبادلاً في ما بيننا، وأردت أن نكون متفقين على كل شيء. وسأعيد بناء هذا البيت بجمال وروعة يتلاءمان مع الحبيبة التي اخترتها.»

مد يده إلى جيب سرواله وتناول علبة صغيرة تحتوي على خاتم الخطوبة فأخذه ثم وضعه في اصبعها. لقد كان من نوع السوليتر ذي اللون الوردي الرائع، عكست الشمس عليه ألوان قوس قزح عندما حركت يدها.

«آه، يا دانكن، إنه رائع.» وترقرقت الدموع في عينيها وهي تحيط عنقه بيديها. وكان هذا اليوم أسعد أيام حياتها.

www.liilas.com

أخذها دانكن إلى السهول الخضراء، ليمرحا فيها تحت أشعة الشمس، وليتنشقا عبير الأزهار البرية، فيما زقزقة العصافير تبارك حبهما بأصواتها المختلفة.

كان الأسبوعان التاليان مليئين بالعمل المتواصل لهما. جانسي في مجالها كعارضة أزياء ودانكن يرسم التصاميم الجديدة للبيت القديم. وبدأ برسم صورة جديدة لها، ولكن كان عليهما أن يفترقا بعد ذلك لثلاثة أشهر تقريباً حيث تكون ما زالت في اليونان لتنفيذ عقدها، ويكون دانكن في نيوزيلندا. وافترقا متواعدين على أن يتكاتبا ويتصلا ببعضهما البعض هاتفياً كلما سنحت لهما الظروف.

«وسنعين موعد الزفاف حال عودتي من السفر.» قال دانكن بثبات.

ابتسمت بعذوبة. «هل هذا وعد؟»

«كلا، إنه تهديد.» قال مغازلاً.

شعرت جانسي بالشوق إليه في الحال، مع أنها شغلت نفسها كثيراً مع فريق عملها الكبير. شعرت بالشوق لأشياء صغيرة، كالمشي سوياً، يده في يدها، وهو يلف خصرها برقة. تاقت إلى نظراته المليئة بالمحبة والحنان.

مضى أكثر من ثلاثة أسابيع على وجودها في اليونان عندما اكتشفت للمرة الأولى بأن ثديها الأيسر تصلب وصغر حجمه، تجاهلت الأمر في البداية، لكن، وبما أنها كانت تشغل الغرفة مع عارضة أزياء أخرى، لاحظت تلك الفتاة ثديها وقالت: «لو كنت مكانك، لاستدعيت طبيباً في الحال.»

هذه الأقوال دفعت بجانسي نحو المرآة، وعبست. ولم تصدق ما رأته، لقد تضاءل حجم ثديها أكثر من المرة الأولى.

وفي تلك الليلة اتصلت بدانكن لتودعه قبل مغادرته إلى نيوزيلندا وكادت أن تخبره عن ثديها ولكنها أمسكت في اللحظة الأخيرة، وخاصة عندما كان يصف محاسنها باعجاب واندهاش.

ذهب بتردد قلق إلى طبيبها بعد عودتها إلى انكلترا. واشتد قلقها عندما طلب منها صورة أشعة لثديها واستشارة اختصاصي في الأورام.

وبعد أن فحصها الطبيب المختص وهو رجل في الخامسة والأربعين من عمره قال لها: «قد يكون في ثديك بعض الالتهابات، ويجب أخذ نسيج وفحصه مجهرياً لأكتشف ذلك.»

«أخذ؟» قالت جانسي وهي ترتجف خوفاً.

«إنها عملية استكشافية بسيطة، فلا تجزعي، كل ما في الأمر أنه عليك أن تمضي ليلة في المستشفى.»

«وهل ستترك هذه العملية أثراً على ثديي؟»

هز رأسه نفياً. «أبداً، سوف تختفي وتتلاشى في حلمة الثدي، متى باستطاعتك القيام بها؟»

فابتسمت جانسي بارتياح وقالت: «في أي وقت.»

«حسناً، لنجري هذه العملية بعد غد.»

أحست بأنه يريد اجراء هذه العملية في أسرع وقت ممكن فأجابت بسرعة: «نعم، أوافق.»

أدخلت جانسي إلى مستشفى كبير، ووضعت في غرفة خاصة بالعمليات النسائية. لقد كانت بمفردها، فصديقتها فيكي كانت في مهمة تنفيذ أحد العقود. لم تطلب من أي صديقة أخرى مرافقتها من أجل هذه الاجراءات البسيطة. فليس من داع لازعاج أحد، وقد نفذ الأمر بسرعة. إنها لم تشك من ألم في

www.liilas.com

حياتها، كما أنها لم تدخل مرة المستشفى بداعي المرض وهذا ما سبب لها ازعاجاً وتوتراً بالغين. وطمأنتها الممرضات وهن يدخلنها إلى غرفة العمليات بأن الأمور سوف تجري على خير ما يرام.

عندما استيقظت بعد بضع ساعات، أحست بالعطش والجفاف في حلقها بفعل المخدر، ولكن، والحمد لله لم تشعر بأي ألم. بعدما دخلت الممرضة، سألتها جانسي عن النتيجة، وكان رد الممرضة بأنهم ما زالوا ينتظرون إنهاء التحاليل في المختبر ولن تظهر قبل المساء، حيث سيقوم الطبيب المختص باعلامها بالنتيجة كاملة.

وفي المساء، أعلن لها الطبيب المختص بلهجة واضحة وخبيرة: «نتيجة المختبر ظهرت، وأخشى أن أقول لك بأنك مريضة بداء السرطان.» حدقت جانسي في وجهه بخوف شديد وتابع يقول: «ويجب أن...»

وقاطعته: «هل تقصد أنك تريد استئصال ثديي؟»

«نعم، استئصالاً كاملاً لثديك الأيسر.»

الفصل الثاني

صعقت جانسي لهذا الخبر، وعادت تقول في حدة: «تقصد إزالة الورم فقط؟»

وهزّ رأسه نافياً: «كلا، لقد فات الأوان على ذلك، وقد تملك منك المرض. يجب إجراء عملية استئصال كاملة.»

حدقت به غير مصدقة ما تسمعه ثم استشاطت غضباً وباعتراض شديد قالت: «أنت مخطىء! لقد ارتكبت خطأ. من غير الممكن أن أكون مصابة بالسرطان، فأنا ما زلت في الثالثة والعشرين من عمري. النساء اللواتي أكبر مني سناً يصبن بسرطان الثدي.»

«أسف، ما من شك في هذا الأمر، إنه...»

«أقول لك إنك على خطأ!» قاطعته بقوة. «أريد تحليلاً آخر.»

«يحق لك ذلك طبعاً.» قال الطبيب المختص مشفقاً عليها. «سأمر عليك صباح غد ونتكلم في الأمر مجدداً.» ووضع يده على كتفها بحنان ثم تابع: «أعلم أنه يصعب عليك أخذ الأمر بجدية، ولكن هذا الورم السرطاني يهدد بالانتشار، ويجب استئصال ثديك حفاظاً على حياتك.»

نفذت كلماته الأخيرة، تهشم كل ممانعة في عدم قبول الأمر المحتم. إنها مريضة بداء السرطان وقد تموت. وخرج الطبيب من الغرفة وأقفل الباب خلفه، وتركها وحدها بعد أن انهار عالمها. «لا! لا!» وأخذت تصرخ وتضرب السرير بقبضتي يديها وكأنها تحارب القدر. حاولت دفع تلك الكارثة عنها بإرادة قوية

www.liilas.com

صلبة، لكن الدموع انهمرت بغزارة من عينيها وأطلقت صرخة عنيفة متحدية. «لا! لا! لا!»

نبهت صرخاتها الممرضتين القابعتين وجاءتا مسرعتين تحاولان تهدئة أعصابها المتوترة، لكنها دفعتهما بعنف وحاولت مغادرة السرير وهي تصرخ بأعلى صوتها: «لا أصدق ذلك، لقد أخطأوا، أريد الذهاب فوراً.»

وأخيراً، اضطرت الممرضتان إلى حقنها بحقنة مهدئة، لكنها لم تهدئها بما فيه الكفاية، فقد استيقظت عدة مرات مذعورة خلال ذلك الليل الطويل وكأنها أصيبت بالقلق. فهناك أمر مخيف سيحصل لها. وصارت تتقلب من جنب إلى جنب بإعياء وبشعور بالألم في ثديها. وتذكرت العملية وعقلها يرفض اجراءها. ودائماً ماذا سيقول وهل سيظل على حبه لها؟

استغرقت أخيراً في النوم بعد عناء طويل وأفكار رهيبة أقضت مضجعها. استيقظت في الصباح على ضجة المستشفى وحركة الممرضين. حدقت في أرجاء الغرفة بعينين متعبتين بسبب كثرة الدموع وقلة النوم وعادت تحس بوخز في ثديها كما عادت الذكريات تعصف بها وأخذت بالصراخ: «لا، لا، أرجوكم لا... لا يمكن أن تكون هذه الحقيقة واقعة فعلاً.»

دخلت الممرضة وقالت: «هل تريدين فطور الصباح؟»

وهزت جانسي رأسها رافضة: «لا.»

«هل ما زلت تشعرين بالانزعاج؟»

«كلا.» قالت جانسي بحدة ظاهرة. «لا أريد شيئاً.»

عاونتها الممرضة لتستوي على سريرها، عادت تفكر بروية، وهي تتذكر مقالات عديدة قرأتها عن سرطان الثدي ولم تهتم بها وكأن الأمر لا يعنيها مطلقاً. قد يعلن لها الطبيب

المختص أنها ليست بحاجة إلى تلك العملية الجراحية بل يمكن معالجتها بالإشعاعات أو أي طريقة أخرى. وانتعشت وهي تصل بأفكارها إلى هذا الحد، فنهضت وتوجهت نحو المغسلة لتضع بعض المساحيق التجميلية فوق وجهها.

دخل عليها الطبيب المختص وتنهد لرؤية الشحوب الذي يطل من عيني مريضته. ولم يعطها أي فرصة للكلام، فقال لها: «لقد أجرينا تحليلاً آخر، بناءً على الحاحي الشديد بسبب صغر سنك. فمن دون أدنى شك، أنت مصابة بتورم سرطاني خطير.»

«قد تكون مخطئاً وتكون نتائج هذه التحاليل لمريض غيري.»

هزّ الطبيب رأسه ينفي أقوال جانسي. وعضت على شفتها وقالت: «حسناً، سأتبع العلاج بطريقة الاشعاعات بدلاً من العملية الجراحية.»

وعاد يهز رأسه «لا أمل حتى بهذا. لقد تغلغل الورم وتشعب منذ وقت بعيد والعملية الجراحية هي الخيار الوحيد.»

شحب وجه جانسي وقبضت بأحكام على غطاء السرير. «هل أنت متأكد فعلاً؟ أنا أتقبل أي شيء آخر حتى تساقط شعري...» وخاب ظنها مرة أخرى عندما رأته يعود إلى هز رأسه نافياً. وجاهدت في حبس دموعها وتابعت بثبات: «في هذه الحال، أريد زرع ثدي جديد مع انتهاء العملية الجراحية وهكذا...»

«آسف، لا يمكن القيام بهذا أيضاً. فانا لست متأكداً بعد من الحجم المطلوب استئصاله... ولا من أي نوع من السرطان لديك، كما لا أنصح بزرع ثدي جديد، قبل سنتين من بعد العملية الجراحية، على الأقل.»

«ولكن، يجب أن تقوم بذلك! هل تفهم؟ باستطاعتي دفع المال

www.liilas.com

المطلوب، فلدي منه الكثير، أما إذا لم يكن بمقدورك القيام بها، فاستدعي شخصاً آخر لهذه المهمة.» وارتفع صوتها بطريقة هيستيرية.

«المسألة ليست مسألة مال. كما أنها ليست المعالجة الصحيحة التي أنصح بها، فلو عاد السرطان إلى الظهور...»

«هل تقصد بأنه قد يعود فعلاً؟» وحدقت به بوجه وجل جامد.

«سيبقى الخطر موجوداً لغاية السنتين من بعد اجراء العملية الجراحية. وبعد خمس سنوات وفي حال زال الخطر نهائياً، ستكونين بخير.»

ملأ اليأس قلبها. «يا إلهي. يجب أن تكون هناك طريقة أخرى، لا بد من طريقة أخرى.»

ولكنه عاد يهزّ رأسه نافياً.

مشوهة. هذا ما فكرت به جانسي بعد خروجها من المستشفى وهي تستلقي فوق سريرها. وعلقت هذه الكلمة في ذهنها تقضّ مضجعها. ساكون مشوهة، يا لها من كلمة مخيفة... لن أستطيع القيام بعملي بعد اليوم. هل هناك عارضة أزياء بثدي واحد! أو عروسة. ودانكن الذي يغرم بها وبجسدها الرائع، هل سيبقى على حبه لها على الرغم من تشوهها؟

عاد اليأس والاحباط يخيمان عليها وبكت بحرقة وبشهقات مؤلمة ثم ثارت وغضبت وأخذت تضرب نفسها بكره شديد للجسد الذي خانها. «لماذا أنا؟ ما الذي فعلته؟» وأحبت أن تكلم أحداً ما لتهدىء من نفسها، أو إلى كتف أمينة تبكي عليها ولكن الذين تعرفهم، في مراكز أعمالهم في هذا اليوم من أيام الأسبوع. فصديقتها فيكي في فرنسا هذه الأيام من أجل عرض للأزياء، ولن تعود قبل نهاية الأسبوع، حيث ستكون جانسي في

المستشفى مرة أخرى لإجراء عمليتها الجراحية، عملية الاستئصال، كم تؤلمها هذه الكلمة.

تراجع النهار مع قدوم الليل، فحملت نفسها على النهوض من السرير لتحضر فنجاناً من القهوة، فلا شهية لها للطعام. رأت أن حياتها حطاماً من المستحيل إعادتها إلى ما كانت عليه. ليس قبل سنتين على الأقل. فبعد سنتين يمكنها إعادة بناء ثدي جديد. ولكن، ماذا ستفعل إلى أن يحين ذلك الوقت في ما لو عاشت حتى انقضائهما؟ لكن لا، عليها أن تكون إيجابية وتفكر بإيجابية. ألم تقل الممرضة هذا؟ ولكن من السهل عليها قول ذلك، فهي في صحة حسنة ومتزوجة وفي عمر يناهز الخامسة والأربعون وليست فتاة في ربيع عمرها، في الثالثة والعشرين من العمر، عزباء وحياتها محطمة وبائسة.

أبلغت جانسي المسؤولين في مكان عملها بأنه لن تستطيع العمل لبضعة أيام، من دون أن تعطي أي مبررات. وعادت تتصل بهم في صباح اليوم التالي لتلغي كل العقود المترتبة عليها. وسألوها: «لكن لماذا؟ ماذا حصل؟»

لم تستطع جانسي أن تطلعهم على الذي ألمّ بها. وتمتمت: «إنه... إنه أمر شخصي.» وأقفلت الخط.

رن الهاتف مباشرة بعد قطعها للمكالمة بلحظات، وعرفت أن المسؤولين يتصلون بها لمعرفة المزيد من المعلومات، لكن الدموع بدأت تنهمر من عينيها فتركت جرس الهاتف يرن إلى أن استسلم المتصل. فرفعت سماعة الهاتف وتركتها مرفوعة طوال النهار.

في اليوم التالي ذهبت إلى المستشفى لإجراء صورة أشعة لثديها وكذلك لعظام هيكل بنيتها. والتقطلها صور أشعة عديدة

www.liilas.com

في كامل جسدها ورأسها، واستغرقت هذه الاجراءات بعض الوقت، وبينما كانت علامات التأثر تبدو اضحة على وجه الموظف المختص بصور الأشعة. وبعد أن دقق بالصور على شاشة الكومبيوتر، قال لها بارتياح، إن عظام بنيتها في أحسن حال. كان ذلك على الأقل شيئاً حسناً، لأنها كانت قد بدأت تخشى أن لا يكون طبيبها المختص قد أطلعها على كل شيء وأنها تعاني من حالة سيئة للغاية. لذلك جاءت الأخبار مسعفة لها وكانت تقريباً مفاجأة، لها، لكنها على الأقل اثبتت لها تعلقها بالحياة حتى ولو كانت مشوهة، ولكنها على الرغم من ذلك ما زالت تشعر باليأس وعلى استعداد لأن تذرف الدموع لأسخف الأمور.

كان دانكن أعطاها مفتاح شقته للحفاظ عليها. فذهبت تلك الليلة إلى شقته تنشد الراحة، أوقفت سيارتها قرب المقبرة الشهيرة التي دفن فيها كارل ماركس. كانت الشقة مليئة بحاجيات دانكن، وروحه تملأ المكان وكأنه فعلاً موجود. وضبت ملابسه وهي تلمسها بحب شديد ثم أعادت كتبه التي قرأها إلى الرفوف المخصصة لها. وتأكدت بأن المطبخ في حالة حسنة من النظافة والنظام. وأحست بالبرد فأدارت محول التدفئة المركزية، وصممت على المجيء ولو لبضع ساعات مساء كل يوم، فشهر تشرين الثاني سيحل ببرودته قبل عودة دانكن. وتريد أن تبقي الشقة دافئة لدى عودته.

استمتعت إلى أفضل اسطواناته، التي كان يستمع إليها مراراً، ثم سكبت لنفسها بعض الشراب، ودخلت إلى محترف دانكن. رأت صورتها الجديدة فوق القاعدة مغطاة بغطاء أبيض فقذفته بعيداً، وحدقت بالصورة غير المنتهية بعد، صورة

نصفية لجسدها. وتأوهت بألم عميق وهي تنظر إليها، يا لسخرية القدر! كانت الصورة ممتلئة حياة وحيوية وشباباً. عيناها كحبات الزمرد الخضراء تشعان عافية. وأخذ بصرها يسقط فوق عنقها ثم كتفيها إلى أن تجمد فوق ثديها الذي رسمه دانكن بأروع ما يمكن.

وقفت تحدق لبعض الوقت في هذا الرسم، ثم اقتربت ببطء ولمست الثدي الأيسر، تتخيل منظرها من دونه. هل سيتحمل دانكن منظرها بثدي واحد؟ كيف ستعلمه بالأمر، وما هي الكلمات المناسبة التي ستصيغها؟ هل ستطلعه على الأمر بلطف، أم تخبره من دون مقدمات كما فعل الطبيب الجراح؟ ولكن يجب أن تكون الطريقة الثانية، مع أنها تدرك الآن أن الأمر سيكون قاسياً عليها. كيف ستكون ردة فعل دانكن؟ وتساءلت بألم عظيم، هل سيرى الأمر شنيعاً؟ هل سينفر منها عندما يرى التشويه الذي ألمّ بجسدها والذي ظنه جسداً رائعاً لا خلل فيه.

لكن لن تضطر لمقابلته مرة ثانية لو أخبرته بالأمر على الهاتف. راقت لها هذه الفكرة لعدة دقائق لكنها أدركت فجأة أن ذلك سيمنحه وقتاً كافياً ليهيء نفسه عند لقائه بها حتى لا تقرأ تعابير الكره على ملامحه. سيكره رؤيتها؟ يا إلهي، وذلك الحب الكبير الذي جمعهما يتلاشى؟ هذا ليس منصفاً. وأعادت الغطاء ليحتضن صورتها وعادت لتسكب لنفسها مزيداً من الشراب.

جلست على سرير دانكن مجبرة نفسها على تركيز أفكارها ومحاولة أن تضع نفسها في مكان دانكن لترى الأمور من زاويته هو. سيقف بجانبها من دون شك، وسيقبل بها زوجة.

www.liilas.com

لقد أحبها وسيبقى على حبه لها. ولا بد من أن يجدا طريقة لتدوم سعادتهما بالحب الذي جمعهما. ولكن سيكون الأمر مختلفاً. لن يكون مستقبلهما باهراً رائعاً وكاملاً كما رآه دانكن. وستعلم جيداً بأن نظره سيهان كلما نظر إلى جسدها المشوّه بعيني فنان، وسيحاول أن يخفي هذه الإهانة بدافع من الحب والشفقة. الشفقة! وأغرقتها هذه الكلمة بوحشة كئيبة.

كانت تعتز بشبابها وبمفاتنها وبجسدها، وعندما التقت دانكن، تنامى هذا الاعتزاز مئات الأضعاف. فهي أعظم هدية تملكها لتقدمها له بكل سعادة، في الحب، وفي الزواج. لكنها فقدت ثقتها بنفسها وكرهتها، وكرهت جسدها الذي غدر بها، ولم تستطع تصور دانكن ينظر إليها وثورة عارمة تشتعل في داخله. قد يتجنب رؤيتها ولا يطلب منها الوقوف مجدداً لرسمها. لن تحظى بصور أخرى لها. لن يكون الأمر شنيعاً

وهي مرتدية ملابسها. فقد تضع ثدياً مستعاراً، هذا ما أخبرت به في المستشفى. «لن يلاحظ أحد الفرق.» هذا ما قيل لها لتهدئتها. ولكن دانكن سيعلم، وسيعلم دائماً، لكنها إذا اختفت عنه سنتين في أمل أن يكتب لها العيش طوال هذه الفترة سوف تقوم بزرع ثدي جديد لها.

كانت أفكارها تتجه نحو الرجل الذي أحبته، وأحست أنها بحاجة إليه في وحدتها وخوفها هذا. أرادت الاتصال به وإعلامه بكل شيء لأنها تعلم أنه سيلبي نداءها ويسرع إليها مهما كانت ردة فعله. وفكرت بالاتصال بوالدتها، لكنها نزعت هذه الفكرة من رأسها بسرعة، فقد افترقتا منذ مدة طويلة وأصبحتا غريبتين عن بعضهما بعضاً. وغفت غفوة قصيرة بعد أن أجهدها التفكير المتواصل وهي تحتضن الوسادة فوق

سرير دانكن. وكان الوقت متأخراً عندما تركت شقته وقد قررت عدم مكاشفة دانكن أو أي انسان آخر وسوف تواجه الأمر بمفردها.

وفي مساء اليوم التالي اتصل دانكن من نيوزيلاندا. «مرحباً، يا عزيزتي، كيف الحال؟»

«بـ... بخير. وأنت؟»

«شوقي شديد في العودة إليك. لقد حاولت الاتصال بك مساء البارحة ولم أجدك.»

«لقد كنت في شقتك. وكان الجو بارداً فأدرت التدفئة المركزية لأغير من حرارة الجو.»

«شكراً، هل بقيت طويلاً؟ لقد اتصلت بك مراراً إلى شقتك.»

«نعم... واستلقيت فوق سريرك لفترة طويلة ثم استغرقت في النوم.»

أحس دانكن بأنه قريب منها ولا تبعده تلك المسافات الطويلة عنها فقال لها: «أظن أنك افتقدتني وأنت تستلقين فوق سريري!»

وغمر الحب والحنين كيانها ولم تستطع الإجابة عليه وتمالكت أعصابها لتقول بهدوء: «بالتأكيد لا، فكل ما في الأمر أني كنت أفتقد لسريري.»

«يبدو من صوتك أنك قلقة، هل أنت بخير؟» وبدا بغاية الاهتمام بها.

أجابت بشجاعة كاذبة: «أنا بخير، كل ما في الأمر أني أصبت بالزكام.»

«وأنا لست بجانبك لأقوم على خدمتك؟ أرجوك عديني بالاهتمام بنفسك، فأنا أحبك وبغاية الشوق إليك.»

www.liilas.com

«آه، يا دانكن.» كانت تريده قربها في هذه اللحظات العصيبة وقررت إخباره بكل شيء. «هناك أمر يجب أن...»

ولكنه كان ما زال يتكلم فلم ينتبه لما قالته. «لا أستطيع الانتظار لرؤيتك مجدداً، أنت حبيبتي وأعز من نفسي. أفكر بك دائماً وبعودتي إليك سريعاً لأمتع ناظري بجمالك الفتان، وفكرت بمزيد من الرسومات لك بمجرد عودتي إليك، فأرجوك أن تهتمي بنفسك وبشكلك الحسن.»

«نعم.» أجابت بطريقة عفوية. «بالطبع، اهتم أنت أيضاً بنفسك. إلى اللقاء وأحبك، يا دانكن.»

أعادت سماعة الهاتف إلى مكانها وجلست تحدق بها لوقت طويل، وأخذت تدريجياً تفكر بما سيكون عليه مستقبلها، وبما عليها القيام به.

إن مخاوف جانسي النفسية أبعدت عن ذهنها كم قد تكون العملية الجراحية مؤلمة، حتى اللحظة الأخيرة، وذلك إلى أن كانت مستلقية فوق سريرها ليلة إجراء العملية بدأت تشعر بالخوف من العملية. ولكن، ولا بأي شكل، كانت العملية الجراحية مؤلمة كما تصورت. فعندما استعادت وعيها وجدت نفسها بين عدة أجهزة خاصة، وكانت تشعر بألم في حلقها ورقبتها، في البداية شعرت وكأن ثديها الأيسر خدر. ثم شعرت لاحقاً وكأنه قبض عليه بقبضة قاسية مؤلمة. شعرت بألم بذراعها أيضاً وهي تحاول رفعها. وكان الجرح قد غطي بغطاء كبير. وعندما نُزع عنها للمرة الأولى، رأت أن الثدي الأيسر قد اختفى تماماً، وصرخت: «يا إلهي!» وأبعدت نظرها عنه بدموع

غزيرة. فاحتضنتها الممرضة بحنان وهي تتأوه بألم شديد للشيء الذي خسرته.

أخبرها الطبيب المختص بأنه اضطر إلى نزع جذري للثدي بما فيه العضلات المتصلة بالذراع وفهمت لماذا أحست بالألم عندما رفعت ذراعها.

تعافت جانسي، واندمل جرحها بسرعة لصغر سنها، أكثر من المرأة الأكبر سناً في الغرفة المجاورة، والتي أجريت لها العملية الجراحية نفسها وفي اليوم نفسه. كانت امرأة ممتلئة الجسم، متوسطة العمر، متزوجة ولها أولاد بلغوا سن الرشد. لم تمانع في اجراء العملية الجراحية على الاطلاق وعلى حد قولها: «لقد شفيت من السرطان، وهذا ما يهمني أكثر من أي شيء آخر، أريد أن أعيش لأتمتع برؤية أحفادي وهم يكبرون.» وضحكت لتتابع: «هل تدرين ما قالت لي الممرضة عندما سألتها، لماذا أكثر النساء يزلن الثدي الأيسر، أجابت بمرح، إن أكثر الرجال يستعملون يدهم اليمنى.»

جحظت عينا جانسي، وقالت: «هل تقصدين بأن سببه هو ملامسة الرجل للثدي؟»

«لا، لا أظن ذلك، إنها مزحة فقط، ولا أظن أن أحداً يدري ما سببه.»

أحضرت وجبة العشاء فتركت المرأة جانسي لتتجه إلى غرفتها المليئة بالأزهار. وأخذت جانسي تفكر بوجل: هل يستطيع الرجل فعل هذا العمل الشرير بالمرأة؟ ولكنها عادت وتذكرت أقوال الطبيب المختص بأن مرضها كان ينمو ويكبر منذ زمن بعيد، وأحست بضعف شديد وهي تفكر بأنها لسنوات خلت تعاني من هذا المرض من دون أن تدري.

www.liilas.com

عاد الطبيب المختص لرؤيتها، وعادت تسأله ما الذي سبب لها ذلك الورم السرطاني وكعادته هزّ الطبيب رأسه. «من الصعب تحديد سببه، فهو ليس أمراً طبيعياً لامرأة في سنك. إننا نجري أبحاثاً كثيرة بخصوصه، ونكتشف أدوية جديدة له، أو طرق علاج أخرى، ولكن إزالته نهائياً ليس بيدنا الآن، وبحاجة إلى أبحاث متواصلة ومكثفة.»

جاء طعام الغداء ولكنها لم تتناوله. ودخلت عليها الممرضة تعنفها: «يجب أن تأكلي.»

لم تهتم جانسي، فقد كانت في حالة محزنة من الانهيار التام، وعدم تقبل أي شيء. وتراءى لها المستقبل مظلماً كئيباً وهي لا تستطيع أن تواجهه بشجاعتها المعهودة. لقد طلبت منها إدارة المستشفى مقابلة مستشارة مختصة في الأمور السرطانية سبق لها أن أجرت العملية الجراحية. لكنها رفضت مواجهتها أو محادثتها في هذا الأمر. كان طلبها الوحيد هو الخروج من هذا المستشفى في أسرع وقت ممكن. وعادت تحس بالألم بذراعها، وهي ترفض إجراء بعض التمارين التي نصحتها بها طبيبة مختصة في هذه الأمور، فأنذرتها قائلة لها: «لن تغادري هذا المستشفى قبل أن ترفعي يدك بسهولة ودون ألم لتلامس أذنك اليمنى!» وبدأت جانسي بالتمارين المبرمجة لها.

تركت المستشفى أخيراً بعد عشرة أيام، مع أوامر مشددة للعودة بعد شهر لمقابلة الطبيب المختص. ستعود بمفردها، كما بقيت طوال فترة إقامتها في المستشفى، من دون زيارة أحد، ومن دون زهور تملأ غرفتها. وكيف يكون هناك زائرون وهي لم تخبر أحداً بمقرها؟ واستقلت سيارة أجرة إلى شقتها،

التي ما زالت على حالها منذ تركتها إلى المستشفى، لكنها كانت سعيدة بهذه العودة.

جلست على مقعد والخوف ما زال مسيطراً على أعصابها. إنها بحاجة إلى يومين من الراحة على الأقل، لتستعيد قوتها، ولتهيء نفسها لتنفيذ الخطة التي رسمتها في وحدتها القاتلة. وأغمضت عينيها بارتياح ولكن رنين الهاتف كسر الهدوء.

نظرت جانسي إلى الهاتف ببرود من دون أن تحرك ساكناً. لكنها عادت وفكرت بأنه من الممكن أن يكون دانكن، مع العلم أنه من المستحيل أن يتصل في هذا الوقت من النهار. ولم تستطع مقاومة الرنين أكثر، فأسرعت نحو الهاتف والتقطت السماعة: «ألو؟»

«جانسي؟» وجاءها صوت فيكي على الطرف الآخر من الخط. «في أي مكان كنت فوق سطح الأرض؟ لقد حاولت الاتصال بك مراراً منذ أسبوعين تقريباً.»

«أهلاً فيكي. لقد كنت في مكان بعيد.»

«هذا ما فكرت به.» لكنها استدركت قائلة: «ولكن أين؟»

«آه... كنت أعمل.»

«ولكني اتصلت بمركز العمل وأخبروني بأنك ألغيت بعض الأعمال المترتبة عليك؟»

«نعم، إنه عمل خاص ولحساب آخر.» قالت جانسي بعياء.

«صحيح؟ ولحساب من؟ قد يكون هذا النوع من العمل رائعاً ليدفعك إلى الغاء ارتباطاتك السابقة.» أجابت فيكي بدهشة.

جانسي تفهم فيكي جيداً، فهي لن تتركها بسلام، حتى تعرف مع من كانت تعمل. فقالت جانسي، وهي تتسلح بسلاح الكذب:

www.liilas.com

«لا، لا... أنا لم أتقاض أجراً، إنه من أجل عمل خيري.» وأضافت كذبة أخرى، «من أجل الأبحاث السرطانية.»

«آه... أظن أنك تستطيعين تحمل هذه الأعمال بما أنك سوف تتزوجين من دانكن.» قالت فيكي بمحبة ظاهرة ومن دون أي رنة غيرة أو حسد في صوتها. فلو أرادت الزواج فهناك عدد لا يستهان به من الرجال الذي يحومون حولها. ولكنها، وكما فعلت جانسي، تريد ذلك الرجل المناسب الذي يهز أحاسيسها ومشاعرها.

«هل دانكن بخير؟ هل اتصل بك أخيراً؟»

«نعم، إنه بخير.»

«عظيم، في المناسبة، هل أنت مرتبطة غداً عند الظهيرة؟ باستطاعتنا اللقاء والتكلم قليلاً.»

«أود ذلك، يا فيكي. ولكني أشعر بالزكام، فلنؤجل لقاءنا هذا لبضعة أيام، فلا أريد أن تصابي أنت الأخرى بهذا الزكام المزعج.»

وافقت فيكي على الفور لارتباطها ببعض الأمور. «حسناً، اتصلي بي متى شعرت بالتحسن، وابقي على اتصال معي، فأنا أشعر ببعض القلق عليك.»

أقفلت فيكي الخط، وابتعدت جانسي عن عالمها الذي أحبته وتعذبت من أجل الوصول إليه، وعادت تسكن الوحدة والشقاء. وللهروب من أفكارها القاتلة، أدارت جهاز المذياع عالياً كي لا ينشغل فكرها بالأمور الأخرى.

لم يكن هناك من طعام طازج في شقتها مساء تلك الليلة، فخرجت إلى أقرب مطعم لتشتري منه حاجتها. لقد أعطتها إدارة المستشفى قطعة من الصوف لتغطي بها الجرح حتى يلتئم نهائياً. لبست معطفاً واسعاً كي لا يشعر أحد بالتشوه الذي

ألم بها. ومشت في الشارع بكل حيوية وهي تخفي الجهة اليسرى من صدرها بذراعها خوفاً من أن يلاحظ أحد عيبها.

لدى عودتها إلى شقتها سمعت رنين الهاتف المتواصل، وبارتباك حملت طعامها بيدها اليسرى التي تؤلمها لتتناول مفتاح الشقة بيدها اليمنى، ولكن الرنين توقف قبل أن تصل إليه. اللعنة! قد يكون دانكن، وهي لا تستطيع الاتصال به بما أنه لم يعطها أي رقم له، واعداً إياها بأنه سوف يتصل بها دائماً. تناولت طعامها من دون أي شهية أو لذة، فرمته جانباً وأدارت جهاز التلفاز لتشاهد نشرة الأخبار، وبما أنها كانت منفعلة ومتأثرة، بكت لسماعها الأخبار المزعجة.

رن جرس الهاتف مرة أخرى، فالتقطت جانسي السماعة بسرعة بأصابع مرتجفة، وجاءها صوت امرأة على الخط الآخر تقول: «جانسي؟»

«نعم.»

«أنا مارغريت ليل، والدة دانكن. لقد قلقنا عليك كثيراً، يا عزيزتي. وكان دانكن يتصل بك كل ليلة منذ مدة طويلة، ولم يحصل على أي جواب. وقد حاولت أنا أيضاً الاتصال بك طوال الأسبوع الفائت. هل أنت بخير؟»

«لا أبداً، لقد كنت في مكان بعيد... أعمل.»

«لكنك لم تخبري دانكن بذلك، لقد كاد يجن لغيابك.»

ذكر اسم دانكن أدمع عينيها بحزن، لكنها قالت: «لقد تمّ الأمر بسرعة مذهلة، فاضطررت إلى حزم حقائبي والرحيل.»

«لكن دانكن أصرّ علي أن أتصل بمركز عملك للاطمئنان عليك، وقالوا إنك ألغيت بعض مشاريعك معهم.»

«لا... لقد حصل بيني وبينهم مناقشة لم نتوصل فيها إلى

www.liilas.com

أي نتيجة، فتركتهم وها أنا أعمل مع وكالة أخرى.» وتعجبت جانسي من نفسها كيف أنها تكذب بسهولة وبكثرة. «آسفة لأني سببت لكم كل هذا الازعاج. ولو كان لدي رقم هاتف دانكن لكنت اتصلت به.»

«نعم، أنا متأكدة من ذلك.» لكن السيدة ليل بقيت غير مقتنعة. «ولكن كان باستطاعتك مراسلته على العنوان البريدي الذي كتبه لك.»

«نعم، والحق معك، لكني لم أتوقع أن أبقى بعيدة طوال هذه المدة وانهمكت في عملي الجديد، ولكني عدت الآن وسأشرح لدانكن كل شيء بنفسي.»

«طبعاً، طبعاً، على العموم لقد أعطاني رقماً لتتصلي به هذه الليلة.» وأعطتها الرقم ثم تابعت تقول بحنان: «ستكون في لندن مع أوليفيا الأسبوع المقبل لشراء بعض الحاجات، يا عزيزتي، وستبقى في شقة دانكن. ستكون فرصة سعيدة لو اجتمعنا معاً على العشاء لمناقشة موضوع زواجك ودانكن، هل هناك من مانع؟»

«لا مانع أبداً.» قالت جانسي بصعوبة. «اتصلا بي حال وصولكما وسوف أحجز تذاكر الحفلة الموسيقية.»

«آه، لا تزعجي نفسك، باستطاعتنا أن...»

«لا، إني مصرة على دعوتي.»

«هذا لطف منك، أيناسبك الخميس المقبل؟ فهناك حفلة موسيقية رائعة في باربيكان في الليلة نفسها.»

«عظيم، وساحجز طاولة لنا جميعاً.»

«وأرجو أن تتصلي بدانكن على الفور، فهو قلق جداً عليك.»

«نعم، سأتصل به في الحال. وآسفة مرة ثانية لازعاجك في

العثور علي، وإلى اللقاء في الأسبوع المقبل، تحياتي للجميع.»

أعادت جانسي السماعة إلى مكانها، وهي تفكر باللقاء المنتظر بينها وبين والدة دانكن وشقيقته وكيف ستواجههما بصدق وكأن شيئاً لم يكن. ونظرت إلى رقم هاتف دانكن في نيوزيلندا، لكنها لم تحاول الاتصال به، وشعرت أنها بحاجة إلى بعض الوقت للتفكير ملياً بالأقوال التي ستواجهه بها.

بعد أن أنهت ما تبقى من طعامها، دخلت إلى الحمام استعداداً للنوم، ولاحظت أنها خسرت من وزنها، ورأت وجهها شاحباً ضعيفاً وعينيها ذابلتين، فقالت: «أبدو... وكأنني ميتة.» يجب أن يغير الغطاء الصوفي فوق الجرح بآخر، لكنها لم تستطع الوقوف أمام المرآة لرؤيته. ستذهب غداً أو بعده إلى المستشفى وتطلب من إحدى الممرضات القيام بذلك. فقد التأم الجرح تقريباً اليوم، وقد لا تحتاج إلى غطاء له بعد يومين.

دخلت غرفة نومها وهي تجمع شجاعتها وتحضر الكلام الذي ستقوله لدانكن، لكن رنين الهاتف انطلق قبل أن ترفع السماعة.

«جانسي؟» وجاء صوت دانكن قلقاً مضطرباً من وراء المسافات البعيدة.

«أعرف تماماً ماذا تريد أن تقول، وآسفة جداً.» وتابعت بسرعة من دون أن تعطيه أي فرصة في الكلام: «فوجئت بعمل طارىء ولم يكن من وسيلة لإبلاغك.»

«وهل أنت بخير؟» قال متنهداً بارتياح.

«نعم بخير، عدا أني مصابة بالزكام.»

لكنه أسرع يقول بحدة: «كان باستطاعتك إبلاغي بسهولة لو

www.liilas.com

حاولت، كان باستطاعتك إعلام عائلتي أو الشركة التي أعمل بها. ألم يخطر على بالك بأني سأكون قلقاً عليك؟»

«لقد قلت لك بأني آسفة، فلم يخطر على بالي أني سأتأخر طوال هذا الوقت...»

«كنت على وشك أن أستقل أول طائرة لأرى بنفسي الأمر الحاصل لك، أليس لديك أي شعور بالمسؤولية.» وكان يتكلم بتوتر ظاهر واهتمام بالغ.

واجهته بالغضب وهي تخفي شعورها بالذنب نحوه. «كفى، لقد قلت لك بأني آسفة... فماذا تريد أكثر؟ فأنا لست معتادة بأن أكون مقيدة من أي شخص.»

«مقيدة؟» انفجر دانكن بحدة. «يا إلهي، هكذا ترين الأمر، إننا مخطوبان، ولي الحق في معرفة تحركاتك، ثم لماذا لم تتصلي بي الليلة بعد أن كلمتك والدتي؟ لقد اتصلت بي وأطلعتني على أنها أعطتك رقم هاتفي.»

«كنت ما زلت أتناول طعام العشاء، أظن أنه يحق لي الانتهاء منه قبل أن أتصل بك، أليس كذلك؟»

«لا تكوني سخيفة!»

«حسناً، لن أكون سخيفة.» وأقفلت الخط بعنف، وجلست وأنفاسها تتسارع، لقد تشاجرا وكانت مخطئة معه. وكل ذلك بسبب تلك العملية الجراحية القذرة. أخذت تبكي بحرقة، والدموع تنحدر فوق خديها الشاحبين.

رن جرس الهاتف مجدداً بعد دقائق، وعرفت بأنه دانكن، فمن الأفضل أن لا ترد لأن ذلك يتلاءم وخططها. ولكن إذا لم ترد عليه، سوف يستقل أول طائرة، فمسحت دموعها بمنديلها ورفعت السماعة.

«جانسي، آسف.» وانتظر جوابها، وعندما لم يسمع أي رد قال: «هل تبكين، يا جانسي؟ يا إلهي، أنا آسف، يا عزيزتي، لم أعن ما قلته، لقد كنت قلقاً وانفعلت هذا كل ما في الأمر.»

«أ... أعرف هذا. وآسفة أيضاً.»

«أرجوك لا تبكي، لقد كنت في غاية القسوة معك.»

«لا لا... أنا تعبة قليلاً وأشعر بوخز من ذلك الزكام المزعج.»

«آه، يا حبيبتي، يجب أن ترتاحي، وسأعود إلى الاتصال بك في مساء الغد.»

«هل أجدك على رقم الهاتف نفسه، قد أتصل بك إذا شئت.»

«حسناً، لن أزعجك بما أنك تفضلين النوم باكراً، اهتمي بصحتك، يا عزيزتي، وتذكري بأني أحبك كثيراً.»

«أحبك أكثر.» وجاء صوتها منكسراً تعباً وتابعت: «عمت مساءً، يا حبيبي.»

«جانسي؟» وتصورت بأنه يريد الاستفسار أكثر، لكنه قال: «عمت مساءً.» وأسرعت تعيد السماعة إلى مكانها.

كان اليوم التالي، حافلاً بالمهمات لجانسي، فقد ذهبت إلى مكتب للخدمات العقارية ولتُعلم بأنها تريد أن تؤجر شقتها بكامل أثاثها لمدة سنتين من الزمن، مؤكدة بأنها لن تجد أي صعوبة بالعثور على مستأجر، وطلبت من الموظف القيام بكافة الاجراءات مع محاميها على أن يكون الدفع بواسطة المصرف الذي تتعامل معه. أسرعت بعدها لشراء تذكرتين للحفلة الموسيقية للسيدة ليل وابنتها أوليفيا، كما حجزت طاولة العشاء لهما في مطعم لمجمع الفنانين. وأنهكها التعب لمجرد قيامها بهذه الأعمال البسيطة، فقد كان من المفروض

www.liilas.com

أن ترتاح لبضع ساعات يومياً في المرحلة الأولى من إجراء تلك العملية الجراحية الصعبة. لكنها لم تكترث للتعب الذي أصابها، بل دفعت نفسها نحو مخزن للألبسة واشترت بعض السترات والسراويل الواسعة. لأنها عازمة على أن ترتاح في الأسبوع المقبل في كل ساعة من ساعات النهار.

اتصل بها دانكن مساءً، وكان كعادته محباً لطيفاً. وأخبرها كم هو بغاية الشوق إليها كان يخطط طوال إقامته في نيوزيلندا للتحسينات التي سيضيفها على البيت القديم الذي سيجمعهما، ولليوم الزفاف الذي سيكون رائعاً من دون شك، وسألها أين تحب أن تمضي فترة شهر العسل. «قد نذهب للتزلج.» اقترح بحماس. «أو إلى بالي أو باهاماس، إذا كنتِ تفضلين الأماكن الحارة.»

«حسناً، سأفكر في الأمر.»

«فكري أيضاً بتاريخ موعد زفافنا، ما رأيك بيوم عيد الميلاد المجيد؟»

ضحكت لتقول: «لن تسامحني والدتك قطعياً. فلقد اتفقت معها ومع شقيقتك لمناقشة هذه الأمور، في لقاء يجمع بيننا الأسبوع المقبل.»

ثم انتقلا إلى الحديث في أمور أخرى إلى أن قال دانكن أخيراً: «عمتِ مساءً.» ولكي يسنح لها بمعالجة زكامها المزعوم.

في تلك الليلة شعرت بالانهاك حتى الموت ولكن لم تستطع النوم. فقد كان من المستحيل أن تنام على جهتها اليسرى أو أن تريح ذراعها فوق الوسادة كما أشار عليها طبيبها المختص. وفي صباح اليوم التالي نهضت بصعوبة من

فراشها، ليوم حافل آخر. وأخذت تستعد للأمور التي تنتظرها في المستقبل وللمبالغ التي ستدفعها للمحامي تدريجياً، ثم ذهبت إلى المستشفى وحصلت على غطاء جديد للجرح وعادت إلى شقتها. أرادت أن تقذف به نحو الأرض وأن تدوسه بقدمها، فهي تعيش الآن بكذبة كبيرة بأنها كاملة وغير مشوهة. ارتداؤه اليوم لا ينفع فهي تخدع نفسها. أحست بالانزعاج والألم لأنها لن تستطيع التكلم إلى دانكن هذه الليلة من دون أن تطلعه على الحقيقة فهي على أي حال لا تملك الشجاعة الكافية، لذلك رفعت سماعة الهاتف وأخلدت إلى النوم.

في صباح اليوم التالي حزمت أمتعتها، ولم تكن سوى بعض الكتب وآلة التسجيل مع مجموعة من التسجيلات الموسيقية، ولم تختار أي ثوب من أثوابها القديمة التي تبرز محاسنها، وأي محاسن تنعم بها الآن؟ فهي لن تعود إلى ارتداء تلك الملابس بعد اليوم. وقذفت بملابسها الداخلية ذات الألوان الزاهية في سلة المهملات، ثم جمعت بقية ملابسها، واتجهت بها إلى محل لبيع الملابس وأوصت البائعة بأن تعطي قيمة مبيعها لمؤسسة خيرية وهي تضيف بحدة: «مؤسسة خيرية من أجل الأبحاث السرطانية.»

بعد ظهر هذا اليوم قامت بعملية تنظيف كاملة للشقة أرهقتها، فارتمت فوق سريرها لتغط في نوم عميق.

استيقظت على صوت رنين جرس الهاتف وكانت الدنيا قد أظلمت.

«حبيبتي؟»

«أهلاً دانكن، كم الساعة الآن؟»

«آسف، هل كنت نائمة؟ وكيف زكامك؟»

www.liilas.com

«ما زلت على حالي، وأنت، كيف حالك؟»

«بخير، عدا أني كنت أتمنى أن أكون بقربك طوال الساعات والأيام التي مضت. لقد حاولت الاتصال بك مراراً مساء البارحة، لكن الخط كان مشغولاً باستمرار.»

«آسفة، أردت النوم قليلاً فرفعت سماعة الهاتف ولم أرجعها إلى مكانها بعدما استيقظت من النوم.» وعضت على شفتها وهي تدرك تماماً بأنها ستكون المرة الأخيرة التي تحدثه بها. «دانكن... أ... آسفة لقد تناولت مهدئاً وأشعر بالنعاس الشديد... هل تمانع في أن نؤجل حديثنا للغد؟ قد أكون أحسن حالاً عندئذٍ.»

«لا، لا أمانع أبداً.» قال بسرعة وهو يشعر بنوع من تأنيب الضمير. «آسف لأني أقلقت راحتك، ساعطيك رقماً جديداً، وتستطيعين الاتصال بي في أي وقت تشائين.» وأملى عليها رقمه الجديد، وهي تعيد من ورائه تسلسله، لكنها لم تدوّنه.

«عمتِ مساءً، يا حبيبتي.»

«عمتَ مساءً.»

«جانسي؟»

«نعم؟»

كان يريدها أن تبقى ليحدثها أكثر، لكنه تراجع ليقول: «لا شيء، لا شيء... أردت القول بأني أحبك وأشتاق إليك.»

أقفلت جانسي الخط بهدوء وأصداء كلماته الأخيرة تتردد في أذنها وضميرها. وستبقى في ذاكرتها طالما هي على قيد الحياة. استيقظت صباح اليوم التالي وهي أكثر نشاطاً وحيوية فقد أنهت ترتيب وتنظيم أمورها ولا مجال للعودة عن قرارها. الشقة نظيفة وعليها أن تسلم المفتاح إلى مكتب

العقارات بعد أن تجمع أغراضها الخاصة في سيارتها. وتوجهت من مكتب العقارات إلى شقة دانكن، حيث بقيت فترة طويلة وهي تلمس ملابسه وتعيد النظر إلى لوحاته متمنية أن تعود تلك اللحظات السعيدة.

لكن من المستحيل إعادة الأمور إلى نصابها. وتناولت رساليتين من حقيبتها إحداهما لوالدته تعتذر لها ولابنتها عن عدم استطاعتها الاجتماع بهما. مع بطاقتين للحفلة الموسيقية. والرسالة الأخرى لدانكن وكانت كلماتها مؤثرة جداً. «دانكن، لا أدري ما أقول لك، لقد التقيت شخصاً آخر وسأغادر لندن لأعيش معه، آسفة، لقد شاء القدر ذلك. جانسي.» ووضعت خاتم الألماس في علبته وتركته مع الرسالة الموجعة فوق الطاولة. وأحست بدقات قلبها تتسارع لهول الموقف فأسرعت بالخروج من الشقة.

www.liilas.com
المعروضة من الجنان

الفصل الثالث

استغرق وصولها إلى الكوخ في يوركشاير ثلاثة أيام. بعد مرور اليوم الأول على مغادرتها شقة دانكن في هايغيت، لفّها الحزن واليأس إلى حد أن الدموع اضطرتها إلى عدم مواصلة قيادتها للسيارة والنزول في فندق صغير خارج لندن لتستريح فيه. ولاحظ المسؤول عن الفندق سوء حالتها وسألها إن كانت تشكو من مرض أو أي شيء آخر، لكنها تمتمت بكلمات مبهمة وأسرعت إلى غرفتها. شعرت بالذنب لكذبها المتواصل وهي تستلقي فوق السرير، إنها تعاني من هذا الكذب، فبسببه خسرت دانكن، وخسرت حياتها التي أحبتها وعرفتها معه، وخسرت كل شيء.

في اليوم التالي، رحلت عن الفندق الصغيرة وتوقفت مراراً، بسبب نراعها المتعبة، فقررت أن تمضي ليلتها في بيت للاستراحة قرب شيفيلد. ووصلت أخيراً في صباح اليوم التالي إلى الكوخ المقصود وهي تشعر بأنها مسافرة منذ أسابيع.

توقعت جانسي هطول المطر، ربما بسبب الحالة الصعبة التي تمر بها. ولكنها كانت كلما اقتربت من الكوخ، رأت أن الشمس تنقشع وتعكس ظلالاً دافئة فوق السهول الخصبة، إلى أن حولتها إلى سجادة شرقية رائعة. كان عليها أن تتوقف من وقت إلى آخر وتعيد النظر في خريطة المكان. لقد كانت عمتها الكبرى في غاية اللطف معها عندما كانت صغيرة السن. إنها لا

تكاد تتذكر تلك الاجازات التي أمضتها معها عندما افترق والداها. فقد كانت عمتها تستعمل الكوخ خلال أشهر الصيف فقط، عندما كانت جانسي تتنقل بين والديها اللذين كانا يتنازعان عليها إلى أن يفوز أحدهما بها وتمضي الإجازة معه، لذلك فهي لا تتذكر كثيراً وقائع اجازاتها في ذلك الكوخ.

عند تقاطع الطرق توقفت جانسي مرة أخرى لتراجع الخريطة، واستوت في جلستها وهي تحاول أن تعود بذاكرتها إلى الماضي البعيد عندما كانت طفلة. كانت عمتها سيسيلي تنتظرها في المحطة في سيارتها القديمة. وكانتا تذهبان دائماً إلى تلك المدن الساحلية القديمة وتمضيان فترات بعد الظهر على الشاطىء. كانتا أحياناً تمشيان طويلاً على التلال وتقومان بالنزهات إلى نهر صغير تقطعانه بالقفز فوق حجارته الصغيرة المنتشرة هنا وهناك. وعادت إلى ذاكرتها صور باهتة عن ساعات طويلة أمضيتاها في المتاحف. وعندما أمطرت جلست قرب المدفأة وأخذت عمتها سيسيلي تعلمها كيف تخيط. وبدأت فعلاً بخياطة رداء وأخذته معها عند عودتها إلى المنزل لتكمل خياطته ولكن العمة ليست بجانبها لتحثها وتبث روح الحماس فيها، فأهملته ونسيت أمره.

اتجهت بسيارتها نحو اليسار وبدأت بالصعود عبر تلة لتنحدر ببطء ولتراقب المراعي المحيطة. وبعد أن عبرت ميلاً أو أكثر قليلاً، عادت لتنحدر بسيارتها نحو قرية صغيرة تحوي عدداً قليلاً من المنازل القريبة من بعضها البعض وهذا ما لم تذكره أبداً. مرت بمزرعة وتذكرتها. ثم لاح لها الكوخ على بعد مئتي ياردة. ورأته أكبر مما تعرفه أو تتذكره. فهو مربع الشكل، لكنه متين وجدرانه رمادية اللون، أما الباب

www.liilas.com

والنوافذ، فقد تغيرت ألوانها، المدهونة بطلاء أخضر، إلى لون باهت بفعل عوامل الطقس والرطوبة. أما الحديقة، فقد امتلأت بأعشاب برية بعد أن كانت مليئة بالورود والرياحين.

خرجت جانسي من سيارتها والهواء العليل المنعش يلفح وجهها. حاولت أن تتذكر كم مضى على وفاة عمتها وأدركت بشيء من الرعب بأنها توفيت منذ ما يقارب الثلاث سنوات. وبعد وفاتها لم تأتِ إلى هذا المكان للاعتناء به، فقد كانت دائماً تنوي الحضور ولكن كان الوقت يمر سريعاً. وفكرت بحزن بأن الوقت دائماً يمر سريعاً عندما يكون المرء سعيداً.

كانت البوابة الحديدية مفتوحة على مصراعيها، فدخلتها ومشت عبر الحديقة والأعشاب الشوكية كادت أن تمزق سروالها، إلى أن وصلت بعد جهد إلى الباب الأمامي. وأدارت القفل بمفتاحها، ولكن الباب بقي جامداً لا يتحرك، وحاولت دفعة لكن دون جدوى. كان بحوزتها مفتاحان آخران للكوخ، فاتجهت إلى الباب الخلفي وفتحته بسهولة.

مشت في أرجاء الكوخ بوجل، فالأثاث والأغراض التي تخص عمتها ما زالت في مكانها. وشعرت بصوت عمتها يستعجلها بالنهوض من فراشها للخروج. الرطوبة تملأ المكان ورائحة العفونة تُشم من كافة أنحاء الكوخ. تمنت لو أنها اعتنت فعلاً به، حاولت فتح إحدى النوافذ بصعوبة لتواجه بعض الذباب الميت عند حافتها، فتراجعت إلى الوراء بانزعاج. من المستحيل أن تبقى في هذا المكان وهو على هذه الحال. وأخذت تفكر في ما لو تعرضه للبيع. فباستطاعتها الذهاب إلى أي فندق لتمضية ليلتها هذه، لكنها بحاجة إلى مكان تعيش فيه لفترة طويلة والحالة التي تمر بها لا تساعدها بالتفكير ملياً

بمكان آخر لاقامتها. اكتشفت أن الباب الأمامي كان مقفلاً بمزلاج قوي من الداخل، ووجدت صعوبة في ازاحته من مكانه بيد واحدة، ولكن وبعد محاولات عديدة رفعته ورمته جانباً، وفتح الباب لتدخل منه أشعة الشمس الدافئة.

وقفت جانسي أمام الباب الأمامي وهي تستعيد ذكرياتها البعيدة. شعرت بتحسن والشمس الدافئة تغمر وجهها الشاحب. لو أنها باعت هذا الكوخ، لتوجب عليها أن تستأجر أو تشتري منزلاً آخر، لذلك باستطاعتها البقاء فيه وتحسينه. واتخذت قرارها واتجهت نحو سيارتها وقادتها إلى الجهة الخلفية حيث المخزن القديم، الذي كانت تستعمله العمة سيسيلي كمرآب لسيارتها القديمة. تقدمت من بابه تعالج قفله ففتح معها بسهولة، ثم دفعت مصراعي الباب وابتسمت بسعادة لرؤية سيارة العمة سيسيلي بلونها الأبيض اللماع.

دخلت وتمشت حول السيارة، وعادت بها الذكرى إلى النزهات التي قامت بها مع عمتها في هذه السيارة. بالنسبة إليها، عندما كانت طفلة، كانت تعتبرها سيارة قديمة مهترئة، أما اليوم، فهي تبدو لها سيارة قيمة تجذب هواة هذا النوع. لابد وأنها كانت غالية الثمن في أول عهدها، فهي من نوع دايملر. أخذت تنظر في أنحاء المرآب، لقد احتفظت العمة سيسيلي بالأدوات المنزلية وأدوات الحديقة في كل ركن من هذا الموضع. واسترعى انتباهها أن سيارة العمة لا غبار عليها، فأحست بخوف وبعدم ارتياح وخرجت بسرعة من المكان، لابد وأن أحداً ما قد أتى واعتنى بها. لكن، عندما خرجت وغمرتها أشعة الشمس الدافئة من جديد، أحست بأنها سخيفة، فهناك احتمال كبير في أن تكون عمتها قد أوصت بالاعتناء بسيارتها.

www.liilas.com

دخلت جانسي مجدداً إلى الكوخ، وتوجهت نحو غرفة الجلوس التي كانت أفضل حالاً من بقية الغرف، فمسحت الغبار عن مقعد كبير وجلست عليه. كان عليها أن تبدأ فوراً بعملية التنظيف، لكنها أحست بأنها فقدت كل طاقتها، وقررت أن تبدأ غداً.

بعد ساعة أو أكثر استيقظت جانسي من غفوة لم تستطع مقاومتها. غابت الشمس، وأصبح الجو بارداً فأحست برعشة تسري في جسدها. قامت واتجهت نحو الباب الأمامي وأقفلته، ثم أدارت مفتاح النور، لكن شيئاً لم يتغير وبقيت غارقة في الظلام. أسرعت إلى المطبخ وأدارت مفتاحه الكهربائي، لكنها ما زالت في الظلام. وأدركت أخيراً بأن الكهرباء قطعت عن المكان منذ وفاة عمتها. كذلك المياه انقطعت مع انقطاع التيار الكهربائي. كان عليها أن تفكر بهذه الأشياء قبل قدومها إلى الكوخ وأن تتصل بمحامي العمة سيسيلي لإعادة الحياة إلى المكان.

كان من السهل عليها أن تنفجر باكية في تلك الحالة المزرية التي وصلت إليها، لكنها أخذت تقاوم عواملها النفسية المضطربة بشجاعة. الشموع، نعم هذا ما تحتاج إليه. وتذكرت احدى زياراتها للعمة سيسيلي حيث انقطع التيار الكهربائي، فعمدت عمتها إلى إضاءة العديد من هذه الشموع. وبدا المكان في غاية الرومانسية، خاصة عندما أعطتها عمتها شمعداناً قديماً لتنير به طريقها نحو غرفة النوم. أخذت تفتش عن هذه الشموع فوجدتها أخيراً في احدى خزائن المطبخ ومن حسن حظها أنها أحضرت معها بعض علب الثقاب فأضاءت عدداً من الشموع ووضعتها في أرجاء غرفة الجلوس.

فتحت جانسي علبة طعام كانت قد أشترته صباح هذا اليوم وهي تفكر بالأعمال المترتبة عليها غداً. وبينما كانت تتناول طعامها، تنبهت إلى أصوات ضعيفة تصدر من الجهة الخلفية للكوخ. إنها الفئران من دون شك. كان الأولى بها أن تفكر بكل هذه الأمور، لكنها كانت في عجلة من أمرها عندما غادرت لندن مبتعدة عن كل شيء يربطها بدانكن، وتوقعت أن تلجأ إلى هذا المكان وتراه كما كانت تراه بالأمس أيام العمة سيسيلي. تأوهت جانسي للحالة التي وصلت إليها، وقررت شراء بعض المواد السامة للفئران صباح الغد.

فُتح الباب الأمامي فجأة وبعنف، ليظهر منه رجل ملتح يحمل بندقية في يده. وصرخت جانسي برعب شديد ثم قفزت واقفة على قدميها واصطدمت بالطاولة فأوقعتها على الأرض. وظنت بأنه يريد مهاجمتها وفكرت إذا كان هذا ما يرمي إليه، فعلاً، فليفعل، إنني مشوهة وبيدي واحد. وكان هذا الأمر قاسياً عليها ولكنها بخطوات سريعة متعثرة، توجهت نحو المدفأة وتناولت محراك النار، ورفعته عالياً وكأنه مضرب. صرخت بصوت وجل مرتجف: «أخرج من هنا!»

لكن الرجل أخذ يحدق بها باستغراب شديد، وجاءت كلماته لها مهددة واعدة. «ماذا تفعلين في هذا المكان؟»

«أخرج من هنا.» صرخت بشكل هستيري واضح. «أخرج، أو قد أضطر إلى استدعاء الشرطة.»

أرخى الرجل بندقيته وقال بصوت أرق نوعاً ما: «كنت على وشك القيام بالشيء نفسه، ولكن... لا يوجد أي هاتف في الجوار.»

www.liilas.com

تقدم منها بضع خطوات، فما كان من جانسي إلا أن لوحت بمحراك النار. «لا تقترب مني.»

«حسناً، سوف أضع البندقية جانباً.» وجاء صوته لطيفاً وهو يبعد البندقية. «ماذا تفعلين في كوخ الآنسة بروس؟»

«ولكنني الآنسة...» وتوقفت وهي تستدرك بأنه يقصد عمتها. «أنا جانسي بروس، أقرب قريبات العمة سيسيلي، فمن أنت؟»

بدت علامات الدهشة واضحة على محياه. «وأخيراً جئت لتري المكان، لكنك تأخرت. أدعى لينتون، روبرت لينتون وأملك المزرعة القريبة من الكوخ. فقد رأيت المكان مضاء فظننت أن بعض اللصوص اقتحموه.»

«آه، فهمت.» قالت بارتياح ثم وضعت محراك النار جانباً واقتربت منه لتتعرف إليه أكثر. اللحية جعلته يبدو أكبر سناً، لكنه كان في الخامسة والأربعين من العمر أو أقل بقليل. يرتدي ملابس المزرعة وينتعل حذاء ضخماً. إنها تعرفه، لكن ملامحه تغيرت من جراء إرخائه للحيته الطويلة الكثة ولكنه كان في الواقع أصغر سناً بنحو ثلاثة عشر عاماً أي بسن دانكن تقريباً. تذكرته، إنه الشاب البشوش الذي كان يعتني بسيارة العمة سيسيلي وحديقتها. أما زوجته فكانت تهتم بشؤون الكوخ في غياب العمة. كان له طفل، لا بد أنه أصبح في سن المراهقة الآن.

نظر إلى حقائبها قائلاً: «هل ستمضين إجازتك في هذا المكان؟»

«لا، جئت لأبقى وأعيش فيه.» قالت وكأنها عازمة على قرارها.

أخذ لينتون ينظر إليها بنظرات فاحصة غير مصدق ما يسمعه، ولكن جانسي تقدمت نحو الشموع، فلاحظ بأنها تضع يدها اليسرى فوق صدرها. «هل أذيت نفسك؟»

«آن، نعم... لقد أجهدت يدي بأعمال قاسية.»

«وهل تنوين الاقامة في هذا المكان وهو في هذه الحالة من الفوضى؟»

«نعم، فلا يوجد عندي مسكن آخر.»

عاد يحدق بها بغموض، لكن كان كافياً لرجل قروي أن يستفسر عن هذا القدر من المعلومات. ثم قال لها: «أنت بحاجة إلى الماء، سوف أديرها لك في الحال.»

خرج إلى الباحة الخلفية ورفع غطاء خشبياً ثم أدار الحنفية. وبعد عدة ضخات سمعت أصوات المياه من الأنابيب تتساقط بسرعة في مغسلة المطبخ.

«شكراً.» قالت جانسي بامتنان. «هل تدير لي التيار الكهربائي أيضاً؟»

«عليك أن تتصلي بشركة الكهرباء من أجل هذا الشأن، وإذا أحببت سأتصل بهم بنفسي صباح الغد.»

«أكون شاكرة لو فعلت... هل أنت الذي يأتي دائماً للاعتناء بسيارة العمة؟»

«لقد كتبت لكِ بواسطة محاميك بعد وفاة العمة طالباً شراء الكوخ والسيارة...»

«هل كتبت لي فعلاً؟» وتذكرت شيئاً من هذا، لكنها كانت في أميركا في بعض المهمام.

«ما زلت أود شراءهما، قد تكونين في ضائقة مالية، فإني قادر على تسليفك مبلغاً على حساب...»

www.liilas.com

«هذا غير صحيح.»

«لكنك قلت إن لا مسكن آخر لديك.» ذكرها وهو يعبس بعض الشيء.

«هذا لا يعني بأني مفلسة.»

«آه... اعذريني.»

«لا... في الحقيقة أنا آسفة.» وأبعدت خصلات شعرها عن وجهها بيدها المتعبة وهي تفكر، لا بد وأنه مهتم بالسيارة القديمة أكثر من اهتمامه بالكوخ وإلا لكان اهتم به وحافظ على نظافته. «إني مهتمة لمشروعك لكن... ما رأيك لو نتكلم في هذا الأمر غداً، فقد كان يوماً متعباً بالنسبة لي، ودخولك المفاجيء عليّ أرعبني بعض الشيء.»

تناول لينتون بندقيته بسرعة وقال: «إذاً، أتمنى لك ليلة هادئة.»

لدى خروجه، أعدت جانسي سريرها من المقعد الطويل في غرفة الجلوس. وغفت بارتياح، وقد زال الخوف عنها، وشعرت باطمئنان وسلام لوجود عائلة لينتون بالقرب منها. ولم تعد تخاف من وحدتها في هذا الكوخ طالما الرجل الذي يسكن بجوارها مسلحاً. فهو لا شك باستطاعته مكافحة الجرذان والفئران. وتذكرت دانكن وابتعادها عنه فبكت بحرقة وعذاب.

لم يكن ذلك المقعد الطويل مريحاً، فأمضت جانسي ليلة متقلبة قلقة. ونهضت باكراً مع أول إطلالة لضوء النهار، أخذت حماماً بارداً وهي تعلم جيداً بأن السيد لينتون سوف يظهر في أي لحظة. ارتدت سترة واسعة لتغطي ذلك التشويه. وجلست تدوّن ما تريد القيام به اليوم. ولكن أهم ما يجب عمله، هو

تنظيف وترتيب الكوخ. شعرت بالبرد، فأوقدت المدفأة. دخل لينتون في هذه اللحظة، فأخذتها نوبة من السعال الحاد من جراء الدخان المتصاعد من المدفأة

«عليك أولاً تنظيف المدخنة.» قال ضاحكاً، وأسرع يخمد النار.

«آه... من الأفضل أن أضيف هذا على لائحة أعمالي.»

«لا عليك، هناك رجل من القرية يقوم بمثل هذه الأعمال.» وأخذ ينظر في اللائحة ثم أردف: «سأقوم بتأمين هذا اللائحة بواسطة الهاتف مضيفاً إليها الزيت لاشعال التدفئة المركزية للمكان.»

«إنك لطيف للغاية، يا سيد لينتون. لقد فكرت ملياً بالسيارة.»

«صحيح؟» وبدا الاهتمام واضحاً على وجهه.

«أود أن تحتفظ بها لنفسك، وأعجبت كيف لم تفعل عمتي هذا من قبل. فمن حقك أن تحتفظ بها، فلولا اعتناؤك بها لكانت كومة مهملة لا تنفع لشيء.»

كان يهز رأسه رافضاً وهي تعرض عليه السيارة. «لا أستطيع قبولها، ولا أنكر بأن هذا لطف منك وأقدره كامل التقدير. فأنا لا أستطيع أخذ شيء من فتاة شابة مثلك.»

«في هذه الحال سأبيعها لك.»

«وكم تطلبين ثمناً لها؟ أرجو أن لا تطلبي الكثير.»

هزت رأسها لتقول: «ليس بالمال. سأبيعها لك مقابل إعادة هذا المكان إلى حالته الطبيعية.»

«ولكن هذا ليس عدلاً.»

«نعم، إنه كذلك. تقدمت بعمل رائع طوال فترة اهتمامك بالسيارة.»

www.liilas.com

فكر لبعض الوقت، ثم ابتسم بسرور، ليقول: «حسناً، أنا موافق.»

«وأذكر أن زوجتك كانت تهتم بشؤون المنزل وتساعد عمتي في أمور كثيرة، فهل باستطاعتها أن تساعدني أيضاً؟»

«لقد توفيت زوجتي.» وبدا حزيناً آسفاً.

«هل توفيت بداء السرطان؟» قالت جانسي بحدة وهي تتذكر واقعها الأليم.

أجابها بدهشة: «كلا، لقد توفيت غرقاً هي والولد.»

«آه، آسفة... متى حصل ذلك؟»

«منذ سنوات عديدة.» لكنه تابع باهتمام. «لكنني أستطيع استدعاء أي امرأة من القرية لتساعدك في أمورك إلى أن تشفي تماماً من آلام يدك.» وأراد أن يضيف شيئاً آخر، لكنه توقف عندما سمع محرك سيارة في الخارج. ونظر من خلال النافذة. «إنه ساعي البريد... لم أشاهده في الجوار منذ وقت طويل.»

أسرعت جانسي إلى الخارج لتحصل على رسائلها. لقد كان هناك رسالتان واحدة من محاميها والأخرى معلونة مرة أخرى إلى عنوانها الجديد بواسطة موظفي مكتب البريد الذين سبق وأطلعتهم على عنوان إقامتها الجديدة. وكانت الرسالة من دانكن. نظرت جانسي بحرارة إلى الرسالة للحظات، وهي تفكر بمضمونها المليء بالاتهامات والحقد. لكنها استدركت بأنه ما زال في نيوزيلاندا ومن المستحيل أن يكون قد علم بهروبها بعد.

استفاقت من أفكارها على صوت لينتون. «آسفة، ماذا قلت؟» والتفتت نحوه بوجه شاحب نحيف.

لاحظ لينتون شحوب وجهها وهي تحتضن الرسالة. «سأرى

www.liilas.com

ما الذي أستطيع تأمينه من هذه اللائحة، وأخبرك بكل شيء جديد.»

«نعم... أشكرك كثيراً.» وعند خروجه فتحت جانسي رسالة دانكن باضطراب شديد.

كانت رسالة حب، كتبها دانكن بعد مكالمته الأخيرة لها يشكو عذاب الفراق بكلمات عذبة رقيقة تنم عن مزيج من الألم والفرح إنه لعذاب مرير قاس أن تتخلى عنه وهو يحبها بتلك القوة. فكل كلمة حب قرأتها كانت بمثابة طعنات سكين فوق الثدي الذي أزيل. وقررت أن تحتفظ بهذه الرسالة وتخبئها ككنز عظيم حتى آخر يوم من حياتها.

مضى وقت طويل قبل أن تضع رسالة دانكن في حقيبة يدها وتفتح المغلف الآخر وكان يحتوي على رسالة من مكتب العقارات يعلمها فيها بأن شقتها قد أجرت، وأرفقت الرسالة بملاحظة صغيرة كانت قد ألصقت على باب شقتها من صديقتها فيكي، تسأل عنها وعما حلّ بها. وشعرت جانسي ببعض الذنب تجاه صديقتها وجلست في الحال تكتب لها وتطمئنها عنها. وبعد تردد قليل، قررت جانسي أن لا تدوّن عنوان الكوخ على الرسالة الموجهة لفيكي بل ترسلها بواسطة محاميها. «سأكون في لندن من وقت إلى آخر، وأمر على مكتب المحامي لألتقط رسائلي.»

توجهت جانسي في فترة بعد الظهر، إلى أقرب مدينة، وأرسلت رسالتها وعادت أدراجها لتبدأ حياتها الجديدة.

بعد ثلاثة أسابيع من العمل المتواصل، أصبح الكوخ مهيئاً للسكنى على أكمل وجه. لقد تمّ اصلاح كل شيء وعاد الدفء إليه بترتيب جديد، وأثاث جديد. ساعدها لينتون ووقف إلى

جانبها طوال الوقت. وكانت تناديه بـ روب كباقي سكان القرية. كما ساعدها فريق من التجار وسيدة لطيفة عاملتها بحنان ظاهر، وكانت تدعى آن رودبي، تعيش في القرية وتحضر أفضل الفطائر في تلك المحلة.

جاءتها رسالة من دانكن بواسطة ساعي البريد، وجهها إليها محاميها في لندن. وكان الطابع البريدي انكليزياً هذه المرة. وأخذت جانسي تنظر إلى الرسالة من دون أن تفتحها ولاحظت بأنها مرسلة منذ ثلاثة أيام فقط. إذاً، لقد عاد دانكن من نيوزيلاندا قبل الوقت المحدد وقرأ رسالة الوداع التي تركتها له. وبشجاعة فتحتها، لكنها في الحقيقة لم ترد ذلك، كانت تفضل أن تبقى على كلمات الحب الأخيرة التي أرسلها إليها. وكادت أن ترمي بها في نار المدفأة، لكنها لم تقوَ على فعل ذلك.

كانت رسالة دانكن أنيقة ومختصرة المضمون. «لي الحق في أن أطلب توضيحاً مقنعاً. فإذا لم تكن لديك الشجاعة الكافية للاتصال بي، فساكون يومياً في مقهى باخوس بين الساعة الثانية عشرة والنصف والثانية لغاية الرابع عشر من هذا الشهر، دانكن.»

كان مقهى باخوس، المكان الأقرب لشقة جانسي في لندن، وقد كانا يرتادانه دائماً لتناول الطعام، فاصبح مكانهما المفضل. تذكرت جلساتهما الطويلة فيه ومشاريعهما للمستقبل القريب. وانفعلت فجأة وهي تسخط على جسدها الذي خدعها وسبب لها تشويهاً لا يمكن اصلاحه من جديد. قررت أن تنس أمر الرسالة، وتراءى لها دانكن ينتظرها كل يوم في مقهى باخوس فارتعشت شوقاً إليه، وأرادت أن تراه... ولمرة

واحدة. على أي حال، فهي ستكون في لندن في نهاية الأسبوع لمقابلة الطبيب المختص.

أخذت تقاوم الرغبة في الاجتماع به، في كل دقيقة من دقائق يومها ودقائق سباتها. قاومت تلك الرغبة حتى في اللحظات الأخيرة التي كانت تتوجه فيها إلى لندن بواسطة القطار الحديدي. وصلت إلى لندن قبل الموعد بيوم وأمضت ليلتها في فندق قرب المحطة. لقد وصلت متأخرة فدانكن ليس بانتظارها الآن وباستطاعتها تأجيل رغباتها الملحة للغد. اتصلت بصديقتها فيكي التي وجدتها على أهبة الخروج إلى موعد واتفقتا على أن تلتقيا مساء الغد لتناول العشاء معاً.

لم يغمض لها جفن طوال الليل، فهي في المدينة نفسها مع دانكن وهذا سبب كافٍ لابعاد سلطان النوم عنها. وفي الصباح الباكر توجهت إلى المستشفى لمقابلة الطبيب المختص وبعد أن كشف عليها، طمأنها بأن صحتها بخير لكنه انزعج من نحافتها وضعفها. فطلب منها استشارة طبيب نفساني، لكنها وبعناد ظاهر هزت رأسها رافضة.

غادرت المستشفى وتوجهت نحو كنزينغتون في حوالى الثانية عشرة إلا ربعاً. ثم اتجهت نحو مطعم صغيرة بالقرب من مقهى باخوس، واتخذت لها كرسياً قرب النافذة المطلة على المقهى. وبأعصاب مضطربة انتظرت وصول دانكن في الساعة الثانية عشرة والنصف.

وصل دانكن باكراً يخطو خطوات واسعة وهو يرتدي معطفاً لكن لا شيء يحمي رأسه من المطر الذي بدأ ينهمر. لقد بدا وجهه نحيلاً وعيناه تبحثان من حوله في الجمع فاضطرت جانسي إلى اخفاء وجهها حالاً. توقف أمام باب المقهى حائراً للحظات

www.liilas.com

ثم رأته يدخل ويختفي فيه. لقد فرحت لرؤيته كما تعست لأنها سببت له الألم والعذاب. ثم حانت منها التفاتة نحو المقهى لتراه جالساً مثلها تماماً قرب النافذة ينظر باستمرار نحو الخارج. وهذا يعني بأنها لن تستطيع الخروج قبل أن يخرج دانكن.

مضى الوقت مملاً بطيئاً، ولمرات عديدة قاومت رغبتها الشديدة في الاسراع إليه والارتماء في أحضانه. إنها مستعدة لتتنازل عن أي شيء مقابل الاحساس بحبه وحنانه. وامتلأ المطعم بالزبائن، الذين نظروا باستغراب إليها وإلى الطعام الذي لم تلمسه وإلى وجهها وهي تمسح دموعها.

تقدمت منها سيدة لتقول لها: «هل تشعرين بشيء؟» لم ترد جانسي لكنها حاولت الابتسام مرغمة.

بقي دانكن في مكانه ربع ساعة أخرى، وبدا وجهه تعباً وتعساً عند خروجه فأوقف سيارة أجرة واختفى في الازدحام. كذلك فعلت جانسي، استقلت سيارة أجرة واتجهت إلى الفندق ومنه إلى غرفتها وأسلمت نفسها للحزن والبكاء. لقد أخطأت في مجيئها لرؤيته، وهي التي قررت أن تبعده عنها وعن مخيلتها.

عند الساعة السابعة مساءً، أخذت حماماً دافئاً. وأصبحت جاهزة في الثامنة. واتجهت نحو شقة صديقتها فيكي.

«يا إلهي! ماذا جرى لكِ؟» قالت فيكي وهي ترى تغيراً ملحوظاً قد طرأ على جانسي «تبدين تعبة.»

«شكراً.» هذا كل ما قالته جانسي وهي تخلع معطفها الفضفاض، وكانت قد أكثرت من المساحيق على وجهها لتخفي بها آثار الدموع والبكاء. وبدت طويلة القامة نحيلة الجسد.

«حدقت بها فيكي عابسة. «لقد خسرت من وزنك. وتبدين متعبة بل مرهقة، ألم تجر الأمور على خير ما يرام مع الرجل الذي هربت معه؟»

«لم أقل لكِ في رسالتي بأني هربت مع أحد.»

«لا، لقد أخبرتني دانكن.»

اتسعت عينا جانسي. «دانكن؟ هل جاء إلى هنا؟» ونظرت نحو باب الخروج بخوف شديد، وكأن دانكن سيطل منه في أي لحظة.

«لقد جاء إلى هنا مثل هبوب الريح طالباً مني عنوانك الجديد، ولما قلت له بأني لا أدري أي شيء عن عنوانك، لم يصدقني وثار عليّ بوحشية. وفي النهاية كان على أن أريه قبل ذهابه رسالتك إليّ.»

حمدت ربها على أنها لم تعط عنوانها الجديد لفيكي. «آسفة لأنك مروت بكل هذا، فلم يخطر ببالي أبداً بأنه قد يأتي إليك.»

«ما زلت لا أفهم لماذا تخليت عنه. لقد كنتما مغرمين ببعضكما البعض، وقد خيل إليّ أني أشاهد قصة حب عنيفة كتلك التي نقرأ عنها في الروايات. هل حصل شيء بينكما؟»

«لا ـ لم أستطع الاستمرار في علاقتي معه هذا كل ما في الأمر، ولا أريد الكلام في هذا الموضوع. أخبريني ماذا فعلت طوال تلك الفترة، أريد سماع كل شيء.»

«حسناً، وكما تريدين. ولكني سبق واتصلت بالمطعم الصيني لأطلب طعاماً منه، سأذهب وأحضره ثم نتكلم في شتى المواضيع.»

«عظيم. هل أرافقك؟»

«لا، ابقي هنا. فأنتِ تبدين تعبة، سأحضر معطفي.»

www.liilas.com

دخلت فيكي غرفة نومها فاستدعتها جانسي قائلة لها: «تعالي وخذي معطفي، كما أنك ستحتاجين إلى قبعتي فالجو بارد جداً في الخارج.»

«حسناً، وشكراً لك. هيا اسكبي لنفسك بعض الشراب.»

تأخرت فيكي في العودة أكثر مما توقعت جانسي، لكن عندما عادت أخيراً، دخلت بسرعة وأحكمت اقفال الباب. «يا إلّهي، لن تتكهني أبداً بما حصل لي. لقد كان دانكن ينتظرني خارج المطعم الصيني.»

«ماذا؟ ولكن كيف؟» جحظت عينا جانسي بخوف مريع.

«لقد قبض عليّ بعنف وناداني باسمك.» ووضعت فيكي علب الطعام فوق الطاولة. «يا إلّهي، مازلت أرتعش... لقد كان شرساً قاسياً إلى أن فهم بأنني فيكي، فبدا في غاية الغباء.»

أمسكت جانسي بيد فيكي لتهون عليها الأمر. «ولكن، لماذا ظنّ بأنك أنا، هذا ما لا أفهمه.»

«لقد فكرت بذلك عند عودتي.» وتابعت وهي ما تزال ترتجف من هول الصدمة: «لا بد وأن دانكن قد وضع شقتي تحت المراقبة، تحرٍ خاص أو أي شخص آخر. وشاهدك وأنت تصلين إلى هذا المكان، فاتصل بدانكن فوراً الذي لحق بي ظناً منه بأنني أنتِ، خاصة وأنا أرتدي معطفك وقبعتك.»

«وماذا جرى عندئذٍ؟»

«لقد نعته بالجنون وغاب عن وجهي.»

أخذتا تحدقان ببعضهما البعض للحظات قليلة. «سيظن الآن بأن تحريه إرتكب خطأ فادحاً.» قالت جانسي بأمل كبير.

«هذا ممكن، ولكن قد يعاود النظر في الأمر ويحظى بالجواب الصحيح.»

«لن يخطر بباله أبداً بأني استعرت معطفك، فالرجال لا يقومون بأشياء كهذا.»

«نعم، ولكننا غالباً ما نستبدل ثيابنا، وأظن أنه سيتذكر هذا الأمر، وقد يكون في الخارج الآن ينتظرك.»

«يا إلّهي، لا!» قالت جانسي بصوت وجل. «لا أستطيع أن أراه، لا يمكن أن أراه، يا فيكي.»

«حسناً، لا تخافي، سنفكر بشيء ما.» وألقت نظرة نحو الطعام الذي أحضرته وقالت: «كما يمكننا في الوقت نفسه أن...»

وسمعتا دقاً متواصلاً على الباب الأمامي. فاخذتا ترتعشان خوفاً إلى أن قالت فيكي: «يجب أن أفتح له وإلا سوف يتأكد من وجودك هنا.»

«إنه لن يعرف بالتأكيد. وحاولي اقناعه بأنه ارتكب خطأ، ولكن بحق السماء لا تدعيه يدخل.»

«سأحاول، ولكن اخرجي الآن إلى الشرفة إلى أن أتخلص منه ولا تنسي حقيبة يدك.»

وقفت جانسي في الشرفة مستندة إلى الحائط، وسمعت صوت دانكن وفهمت بأنه دخل عنوة. أضيئت الأنوار في غرفة نوم فيكي وفي الحمام ثم سمعت صوت فيكي ثائراً: «هل اقتنعت الآن؟ لا يحق لك أن تدخل عليّ بهذه الطريقة، لقد قلت لك بأني لم أرَ جانسي لأسابيع مضت. والآن أريدك أن تخرج فوراً لأنني أنتظر بعض الأصدقاء.»

لم يجب دانكن بل اتجه نحو المطبخ. وفتح النافذة لينظر منها نحو الخارج. وعاد يغلقها بهدوء. مضت لحظات باردة إلى أن صرخت فيكي بارتياح: «الحمد للّه، لقد رحل.»

www.liilas.com

دخلت جانسي بسرعة فقالت لها فيكي: «لا بد وأنك تجمدت من البرد.»

لقد كانت أعصاب جانسي مشدودة ومضطربة، لذلك لم تشعر بالبرد، ورأتها تتجه نحو الهاتف: «بمن تتصلين؟»

«ببعض صديقاتنا في المهنة، فدانكن ما زال غير مقتنع، لذلك سوف نخدعه على طريقتنا.»

فعلاً جاءت أربع فتيات ليقفن بجانب جانسي التي تعرضت إلى مضايقات من معجب غير مستحب. وأمضين بضع ساعات وعند خروجهن لبست جانسي معطف احداهن وتزينت بشعر مستعار وخرجت بسهولة.

عند خروجهن اقترب دانكن منهن لكنه لم يتعرف عليها بل سبب خوفاً شديداً لجانسي. وعندما رجعت إلى غرفتها في الفندق أخذت تحلل الأمور. لقد قرأ دانكن الرسالة الموجهة إلى فيكي والتي قالت فيها بأنها ستكون في لندن الأسبوع المقبل، لذلك كلف دانكن شخصاً ما لمراقبة شقة فيكي. لا بد وأنه كان متهوراً في العثور عليها وهي تفهمه جيداً، فهو يريد بعض الايضاحات. لذلك قرر أن ينتظرها في مقهى باخوس، ولكن هل كانت مراقبته لفيكي بدافع الحب أم بدافع الغضب الشديد من خيانتها؟

أرادت العودة بسرعة إلى الكوخ، لكنها تذكرت موعدها مع المحامي صباح اليوم التالي لتوقيع بعض الأوراق الرسمية لشقتها.

لقد تحسن الطقس في اليوم التالي لكن ما زال يرافقه برد قارس. توجهت جانسي إلى مكتب محاميها بسرعة، وهي تلف معطفها جيداً تجنباً للهواء البارد. وأسرعت تنجز ما طلب منها

رافضة فنجاناً من القهوة لأنها على عجلة من أمرها، وغادرت المكان بعد عشرين دقيقة بالضبط.

خرجت جانسي فوراً لتبحث عن سيارة أجرة، وانتظرت لبضع دقائق ولكن دون جدوى فأخذت تمشي نحو الشوارع المزدحمة علّها تحظى بواحدة. وعندما بدأت بالتحرك توقفت سيارة أجرة ليخرج منها رجل، وبسرعة جرت نحوها وهي تلوح بيدها للسائق ليبقى في مكانه. لكن نظرها تسمر على الرجل الذي خرج من السيارة، والذي كان يحدق بها بذهول بعينين غاضبتين. لقد كان دانكن بنفسه.

www.liilas.com

الفصل الرابع

«جانسي!» وكان صاعقة أصابتها، تسمرت في مكانها، فنداء دانكن لها سبب لها قشعريرة هزتها في الأعماق، لكنها تداركت الأمر وأسرعت بالهروب من وجهه.

«انتظري!» وأخذ يجري وراءها، فصرخ سائق سيارة الأجرة يطالب بحقه، عاد دانكن إليه ليقذفه بملاحظة مما أتاح لجانسي فرصة كي تركض وتلحق بحافلة كانت على أهبة التحرك. وكادت تقع وهي تحاول الصعود إليها فشدها السائق من يدها اليسرى بقوة آلمتها. «يجب أن تكوني أكثر حذراً.»

«آسفة، وشكراً لك.» نظرت بسرعة إلى الوراء، فرأت دانكن يعود بسرعة ليستقل سيارة الأجرة وهو يدفع الناس عن طريقه، ثم أعطى تعليماته للسائق بملاحقة الحافلة. ماذا ستفعل الآن؟ وتوقفت الحافلة في المحطة التالية فكان من السهل على دانكن أن يسرع إليها ويستقلها.

لكن الازدحام كان شديداً، فاستطاعت الحافلة أن تتجاوز الإشارة الضوئية الخضراء، وعندما وصل دانكن كانت الإشارة قد تبدلت إلى اللون الأحمر، فتوقف سائق سيارة الأجرة مرغماً لإشارة المرور التالية. وتنهدت جانسي بارتياح وأعطت السائق أجرته. «من فضلك، ما هي المحطات التالية؟»

نظر بدهشة إليها وهو مشمئز من غبائها. «هارودز وهايد بارك كورنر.»

كان عليها أن تتصرف بسرعة، فلن يطول الوقت لتلحق بهم

سيارة الأجرة التي تقل دانكن. انطلقت الحافلة محافظة على سرعة معتدلة، التفتت جانسي إلى الخلف ملقية نظرة عبر زجاج الحافلة لتجد عدداً لا يستهان به من سيارات الأجرة السوداء في زحمة السير من ضمنها سيارة واحدة تجهد للحاق بالحافلة. استعد بعض الركاب للنزول في هارودز، فأخفت نفسها بينهم وقفزت نحو مستودع للألبسة ثم شقت طريقها بين الناس عند مدخل المتجر، لكنها لم تدخله كلياً، بل اتجهت نحو الشمال وإلى ممر آخر عبر متجر يؤدي إلى محطة تيوب. وبعد أن استطلعت المكان بخوف قطعت الطريق نحو المحطة واستقلت بعد دقائق، ظنتها أياماً، القطار، ثم استلقت فوق المقعد بجبن. وبعد أن قطع القطار عدة محطات، شعرت جانسي أخيراً بالطمأنينة، وهي تأمل بأن تكون قد تخلصت من دانكن أخيراً.

سافرت جانسي من محطة مختلفة إلى يورك حيث كوخها، لأنها تأخرت عن قطارها، وبدت الرحلة أطول من العادة فتأخرت في الوصول. لم تزعجها طول المسافة بل جلست مسترخية فوق المقعد وهي تحمد كل ميل أبعدها عن لندن، لقد أخطأت بالذهاب إليها. ولكن هل كان عليها أن تتنبأ بأن دانكن قد وضع شخصاً لمراقبة شقة فيكي ـ أو لدى محاميها أيضاً ـ لكن كيف وصل في الوقت المناسب. ثم أخذت ترتجف لتذكرها رؤية عينيه القاسيتين، كان من المستحيل أن يتركها بسلام قبل معرفة الحقيقة كاملة. ومن الممكن أن تقول أي شيء ما عدا الحقيقة. لن تهتم إن وجدها قاسية وفاسدة. فمن الأفضل له أن يكرهها على أن يشعر بالذنب لأنه لن يستطيع أن يستمر بحبه لها ولن يقوى على النظر إلى التشويه الذي ألم بها.

غفت في القطار منهكة من تلك الصدمات العاطفية التي مرت

www.liilas.com

بها. وبحلول منتصف الليل كانت قد وصلت إلى الكوخ وأضاءت جميع غرفه. كانت رائحة الطلاء الجديد تفوح من كل مكان، فأوقدت المدفأة وجلست بالقرب منها تراقب لهيبها المتأجج. وأخذت تستعيد حوادث تلك الأيام القليلة التي أمضتها في لندن، وتتوقف دائماً عند رؤية دانكن، وجهاً لوجه بعينيه القاسيتين والغاضبتين. لقد اعتمدت في تصرفاتها الكذب والتهرب منه، حتى لا تؤذي مشاعره فينساها في أقرب وقت. لكنها اكتشفت بأنه ليس من النوع الذي يسامح أو ينسى بسهولة. وعلى الرغم من دفء المكان، ارتجفت فرائصها وتساءلت، كم يحتاج دانكن من الوقت ليستسلم للأمر الواقع وينساها؟

كان الشتاء طويلاً بارداً، والثلوج تغمر الحقول والتلال بثوبها الأبيض. لقد تساقط الثلج في أوائل كانون الثاني (يناير) واستمر برغم قدوم شهر آذار (مارس) وكان هذا الوقت بالنسبة لجانسي وقت الراحة. كانت تخرج مرة كل شهر إلى أقرب مدينة لشراء حاجاتها؛ كالطعام والكتب وبعض أشرطة الموسيقى. وعادت إلى الخياطة مبتدئة بقطع من الثياب بحاجة إلى بعض التصليحات، وكل ذلك لترفه عن نفسها في ليالي الشتاء الطويلة. كانت تمشي فوق الثلج كلما سمحت لها الظروف فتشتري بعض الحليب والخضار من الدكان الصغيرة في القرية. أما الشخصان اللذان كانت تراهما بانتظام، فكانا روب لينتون والسيدة رودبي. عند حلول عيد الميلاد، ألحت السيدة رودبي على جانسي أن تشاركها وعائلتها بهجة العيد. شعورها بالأمومة، أنكر عليها بقاء فتاة شابة وحدها في مناسبة كهذه، كما دعت روب لينتون، والظاهر أنها تدعوه كل سنة. لأنه كان أيضاً وحيداً.

أمضت جانسي يوماً رائعاً يفيض بهجة وحناناً وأحست بأنها بين أهلها وعائلتها. وكانت السيدة رودبي بتصميمها ورقة قلبها عازمة على أن لا تتركهما وحيدين ولو للحظة. وكانت جانسي تتوقع أن لا يُرحب بها في هذا الجمع لكن عائلة السيدة رودبي كانت كبيرة وتضج بالحركة، فالحوا عليها وعلى روب في أن يشاركا في جميع الألعاب التقليدية في هذه المناسبة، ثم أخذوا ينشدون التراتيل الميلادية حول شجرة الميلاد.

عند نهاية هذا اليوم الرائع، مشت جانسي وروب إلى كوخها فوق التلة. كان البرد شديداً فالتفا جيداً بمعطفيهما. وحين وصولهما إلى الكوخ، هزّ روب رأسه وهو يشعر بالرياح تقترب. فقال لها: «سوف تثلج عما قريب.»

«هل تدخل لنتناول فنجان قهوة؟»

هزّ رأسه. «لا، شكراً.» لكن لم تبد عليه رغبة في الذهاب بسرعة. فنظر إليها وسألها: «هل أمضيتِ وقتاً طيباً؟»

«نعم، لقد كان الجو مرحاً للغاية.»

«أنتِ صغيرة السن لتدفني نفسك داخل جدران هذا الكوخ، عليك بالخروج دائماً.» لم تعلق جانسي بكلمة، فتابع روب قائلاً: «باستطاعتي قتل الرجل الذي سبب لكِ الألم.»

نظرت جانسي إليه وهي مندهشة من العنف الذي أظهره الاستنتاج الخاطىء الذي أدلى به. «لم يكن هناك أي رجل.»

لكنه لم يصدقها. «إذاً، ما الذي جعلك تتركين كل شيء ودفعك إلى القدوم إلى هذا المكان الموحش؟ فأنا أرى التعاسة جلية في عينيك.» فلم ترد عليه، فهي لا تريد شفقته. لكنه تابع بخشونة: «هل كان زوجك؟ هل أنتِ متزوجة؟»

«لا.»

www.liilas.com

جعله التردد في صوتها غير مقتنع بكلامها. «على أي حال، أنا لم أقصد دفعك نحو المزيد من الحزن، فمن الأفضل نسيان الأمر ودفنه. والبهجة التي اعتمرتك اليوم، دليل واضح بأنك تجتازين هذه الأمور بسرعة.»

تركها بعد أن اطمأن إلى دخولها بسلام إلى الكوخ. فالتجأت إلى النوم وهي تفكر، هل هي فعلاً اجتازت هذه الأمور؟ ربما اجتازت الأمور الصحية، خاصة بعد اجرائها العملية الجراحية، ولكن هل استطاعت التخلص من حب دانكن؟ إنه يلازم أفكارها كل ساعة من ساعات أيامها، أين يكون الآن؟ وماذا يفعل؟ وهل ملّ من محاولة العثور عليها؟ وهل استطاع العثور على امرأة أخرى؟ كان الليل هو أسوأ وقت تمضيه وهي مستلقية على سريرها. فهي تتذكر تصرفاته معها وكيف كان يغمرها بحنانه.

أعطت أشهر الشتاء جانسي وقتاً كافياً للراحة التي تنشدها قدر ما تسمح لها معاناتها الجسدية. لم تكن تقوى أبداً على النظر إلى المرآة، وكانت تغطي هذا التشويه بعدة شرات صوفية، وذراعها أصبحت أفضل حالاً، طالما أنها لا تجهدها. أما عدوها الوحيد فقد كان الشعور بالوحدة. ويوجد في القرية ناد، ولكن تقاليد وعادات تلك القرية، لا تسمح بدخول النساء بمفردهن. فما كان من روب إلا أن اصطحبها عدة مرات في وقت الظهيرة، فأحست بانزعاج بسبب النظرات المتطفلة إليها. على الرغم من أن هذه التقاليد تسمح بدخول روب إلى منزلها والعمل فيه، إلا أنها لا تسمح له قطعياً بأن يقضي بعض السهرات معها.

في البداية، أزعج جانسي هذا التصرف الغريب، وبما أنها قررت العيش في هذه القرية النائية، كان عليها أن تتصاع

وتتقيد بهذه التقاليد. وتدريجياً، تغلبت على هذه الأمور باقتناع تام. وأخذت تشغل نفسها بالتطريز والخياطة، وانهمكت بنسخ صورة كانت معلقة على جدار غرفة الجلوس. كانت القطعة معقدة بعض الشيء. لكنها شعرت بسعادة لا توصف عندما انتهت منها، وباشرت حالاً بقطعة ثانية. وفكرت بأن هذه الأعمال قد تروق لنساء القرية وقد تعمل المزيد من هذه القطع وتعرضها للبيع.

لم تشعر بحماس شديد لأي شيء يحركها ويشغلها منذ أن أجرت العملية الجراحية. لقد ظنت بأنها ستسأم هذه الحياة حتى نهاية العمر. كانت على موعد مع طبيب مختص في أوائل شباط (فبراير) في مدينة يورك، فأمضت نهارها تتنقل بين محال الأشغال اليدوية تتفحص القطع المعروضة للبيع وقررت احتراف هذه المهنة. وتكلمت مع احدى سيدات هذه المحال التي وعدتها بأنها ستلقي نظرة على انتاجها.

عادت جانسي إلى الكوخ بحماس شديد، وأمضت أسابيع في تطوير فكرتها هذه. ولمّا الشتاء ليحل مكانه فصل الربيع الرائع، وكانت المواشي تسرح فرحة في الحقول. ونما العشب الأخضر من جديد تزينه أزهار مختلفة الألوان ترتفع بإنفة وجلال. أخذت جانسي تنظر إلى هذا الجمال بعينين واسعتين، وهي تتمنى بأن تكون الحياة بسيطة وسهلة، كبساطة وسهولة الطبيعة. لم تكن مستعدة بعد لهذا الربيع المشرق، فأحست بأنه سيزيدها احساساً بالوحدة والشقاء.

في صباح يوم من الأيام، كان روب كعادته يتفقد جانسي في كوخها. وقد بدا مختلفاً تماماً، فقد خلع ذلك المعطف الشتوي الكبير، وحلق لحيته الكثة. إنه يبدو الآن أصغر سناً

www.liilas.com

وقد قالت له ذلك من دون تفكير فأرضت غروره. لقد قام بأعمال كثيرة في الكوخ ولم ترد أن تستغل طيبته أكثر وبقيت تلح عليه في أخذ سيارة العمة القديمة لكنه كان دائماً يرفض بإلحاح. وبرغم حظها المتعثر واليأس الذي تعيش فيه، استطاعت أن تطالع علامات الاعجاب بها في عيني روب، مع العلم بأنه لم ينفوه بكلمة واحدة. هذا الاعجاب أزعجها ولم يسرها، فقد كانت متأكدة من أنه ما زال يظن أنها تعاني من قصة حب عنيف، ولم تشف منه حتى الآن. ثم إن فارق السن بينهما قد يردعه ويوقفه عن التفكير بها.

عندما وصل روب سألها: «ما القرار الذي توصلت إليه بالنسبة للحديقة؟»

هزت جانسي رأسها: «لم أفكر مطلقاً في هذا الأمر.»

أجبرها على ارتداء معطفها ثم خرجا إلى الحديقة ليريها الاهمال الظاهر. «لقد أبقت عمتك هذه الحديقة في نضارة دائمة، وعليك أن تتبعي خطواتها.»

«قد أزرع بعض الخضار في تلك الزاوية.»

وقف روب في منتصف الحديقة وأخذ يجول بنظره في ما حوله. «سأحضر منجلاً بعد ظهر هذا اليوم وأباشر بالعمل. وتكونين في هذه الأثناء قد أحكمت رأيك بشأن الحديقة.»

«لا أعرف الكثير في هذه الأمور.»

«إذاً، ها قد سنحت لك الفرصة بذلك، سأحضر لكِ بعض الكتب لتطالعيها. وعندما تقررين أذهب وإياك إلى مشتل للأزهار لشراء بعض النباتات.»

«آه، منسق حدائق!»

كان في رنة صوت جانسي الكثير من السخرية، لكن روب لم

يلاحظ شيئاً منها. لم يكونا متقاربين في وجهات النظر، لكنهما كانا متفقين دائماً على الأمور الأساسية والعملية.

ناقشا أمور الحديقة لبعض الوقت، وكان روب يحدثها عن اهتمام العمة الزائد بالحديقة وكيف كانت تبقيها في أجمل حلة. ومشيا إلى الجهة الخلفية للكوخ، فلاحظت جانسي بعض الناس على مسافة بعيدة منهما وأشارت لروب. «أنظر.»

«أظن أنهم جوّالون. إنهم يأتون بكثرة إلى هذا المكان من شرقي البلاد. إنهم يقرعون دائماً على بابي يطالبون بنصب الخيام في حقولي أو يطلبون سريراً وفطوراً. وكانت تستقبلهم عمتك دائماً، فلا تندهشي في ما لو قرعوا بابك أيضاً. ولكن لا تبقيهم عندك.» قال لها وهو يحذرها.

أجابت ساخرة: «من الرائع أن أحظى ببعض الرفقة.»

«إذاً، إدعي أي صديق. أليس لديك أصدقاء؟... أقصد من الفتيات؟»

«بالطبع.»

أخذت تفكر في اقتراحه بعد رحيله. إنه من المفرح أن تحصل على رفقة فتاة، ولكن هل توافق احدى هذه الصديقات على السفر إلى يوركشاير البعيدة حيث لا سلوى ولا تسلية والأمطار تنهمر معظم الوقت؟ لكن قد تستطيع فيكي بينما لن ترضى الصديقات الأخريات. وبدا الأمر لها مسلياً وهي التي تاقت نفسها للتحدث عن آخر ابتكارات الأزياء والموضة. ودخلت الكوخ لتكتب رسالة دعوة لصديقتها فيكي. لكنها ترددت قليلاً، فمع أنها لم تغب عن لندن سوى أشهر قليلة، فقد يكون هذا وقتاً كافياً لنسيانها. لقد تبادلا الرسائل في هذه الأشهر المنصرمة، أو على الأقل جانسي التي كانت تبعث

www.liilas.com
المعزومة من الغيان

الرسائل بينما لم تتلق من فيكي سوى بطاقتين من الأماكن التي اضطرها العمل أن تكون فيها.

أرسلت جانسي دعوتها إلى فيكي بقضاء شهر الإجازة عندها، وبعد تردد كثير دونت عنوان الكوخ. لا بد وأن دانكن قد نسي أمرها ولن يحاول أن يطلب العنوان الجديد من فيكي. هذه الفكرة أزعجت جانسي وآلمتها، وبعزم قوي رفضت وأنكرت الفكرة. من الواجب عليها أن تركز اهتمامها على الحياة الجديد التي أرادتها وأن تشكر الله دوماً على أنها تجاوزت خطر داء السرطان.

في اليوم التالي جاءها روب وباشر بالعمل في الحديقة، باستطاعة جانسي مساعدته، لأنها لم تعد تشعر بأي ألم في ذراعها. ومع دفء الطبيعة، أخذ هواة المشي يتنزهون في السهول والمرافىء، كما أن العديد من السائحين كانوا يتوقفون لرؤية هذه القرية القديمة. ولمرتين طرق بعض الجوالين باب جانسي طلباً للنوم وللفطور وكانت تصدهم دائماً بحزم.

«من الأفضل أن تأتي بكلب للحراسة.» هذا ما قاله لها روب عندما حدثته بأمر الجوالين. «فأنا أقلق دائماً لوحدتك هذه.» مبدياً اهتماماً بالغاً.

أشارت جانسي بشجاعة: «لطالما عاشت عمتي سيسيلي بمفردها ولسنوات عديدة.»

«الأمر يختلف، كانت أكبر سناً، بينما أنت... أنت شابة... وجذابة.»

أخذ ينظر إليها متفحصاً، فابتعدت عنه جانسي وقالت في نفسها: لو أنك تعلم! فتغيرت ملامح روب وقال بأنه عليه الذهاب. نظرت جانسي إليه بدهشة فإنها المرة الأولى التي

يوجه إليها اطراء وتتحول عنه. وتأوهت لأنها لم تقصد إيذاءه، ولكن قد يكون هذا أفضل له... فهي لا تريده أن ينجرف في أوهام وأحلام واهية لا أمل منها.

بعثت فيكي برسالتها وهي تقول فيها بأنها سوف تأتي خلال عطلة عيد الفصح تلبية لدعوة جانسي كذلك جاء فيها: «قد أنام معظم الوقت، فلا يمكنك تصور كم أنا منهكة ومهدورة القوى.»

فرحت جانسي كثيراً وأسرعت تبتاع أثاثاً جديداً لغرفة نوم الضيوف وطلبت ستائر جديدة. وبعد بضعة أيام كان الأثاث الجديد في الطريق إليها. فوقفت تراقب الطريق الممتد إلى الكوخ ولمحت في إحدى الجهات البعيدة صورة رجل وكأنه يراقب المكان بمنظار، ولم تعلق أي أهمية على هذا الأمر. فقد يكون أحد الجوالين. وبعد قليل وصل الأثاث الجديد وجاء روب لمد يد المساعدة لها فحمل السرير إلى غرفة النوم وأخذ يعلق الستائر الجديدة. وبينما كان يقوم بعمله هذا سمع طرقاً قوياً على الباب الأمامي.

قال روب وهو ما زال يعلق الستائر: «قد يكون أحد الجوالين، أرجو أن تنصحيهم بالذهاب إلى السيدة رودبي، لقد سافر ابنها وهناك غرفة خالية لديها.»

«حسناً.» توجهت جانسي نحو الباب وفتحته بسرعة قائلة: «آسفة، لا أستطيع استقبالك، ولكن...» توقفت وهي تتلقى صدمة قوية. «دانكن!»

وقفت مشلولة الحركة وهي تحدق به بعينين زائغتين، وأحست بأن أعضاءها متوقفة عن العمل. تركت نظراته وجهها لتصب فوق أنحاء جسدها، ولا شعورياً، رفعت جانسي يدها اليسرى تحمي بها صدرها.

www.liilas.com

«مرحباً، يا جانسي، لقد مضى وقت طويل...» كان في صوته رنة حزن. لم تستطع الإجابة عليه، بل تراجعت بضع خطوات إلى الوراء مبتعدةً عن نظراته المتحدية. فتقدم دانكن ظناً منه بأنها ستغلق الباب في وجهه.

«آه، لن تفعلي هذا! أريد أن أتحدث معك حديثاً طويلاً.»

تمايلت جانسي نحو الحائط وهي في حالة من الانهيار التام. «كيف... كيف عثرت عليّ؟» سألته بصوت مرتجف خافت.

لم يعطها دانكن أي شروح. «كان لا بد أن أعثر عليك.»

ثم فتح باب غرفة الجلوس بعنف، وكان على جانسي أن تلحق به. وأخذ ينظر حوله باستهزاء. «أهذا أفضل ما يستطيع تقديمه إليك... ذاك الرجل الذي هربت معه؟»

«لم يكن... أقصد هذه الأشياء تخصني.» هذا ما استطاعت قوله في حالتها العصبية هذه وقد تناهى إلى فكرها ما قالته عن الرجل الذي هربت معه.

«أين هو؟ هل هو موجود الآن؟» قال دانكن بصوت شديد.

«كلا، أنا... أنا بمفردي.»

«إذاً، لم تجرِ الأمور بينكما على خير ما يرام!»

«لماذا؟ لماذا جئت؟ فأنا لا...»

لكن دانكن لم يكن مصغياً إليها بل أسرع ليمسك رسغها الأيسر الذي كان فوق صدرها طوال الوقت، لينظر ملياً في أصابع يدها. «هل تزوجك؟»

صرخت جانسي بخوف شديد، فقد تمتد يده نحو صدرها ويكتشف بأنه صدر مزيف: «لا تلمسني!»

اختفت كل المشاعر الرقيقة التي تعلمتها منه ليظهر بمظهر

المفترس المتوحش، وأخذ يدفعها نحوه بعنف. «أنت تدينين لي، أيتها الجميلة اللعوب.»

عادت جانسي تصرخ مجدداً، وهي تضرب صدره بيدها اليمنى، فأمسك يدها وهو يضحك بجنون، وقرّب وجهها من وجهه. «والآن، أستطيع أن...»

تدخل روب مندفعاً بعنف نحو دانكن، ليسلخه عن جانسي، التي ترنحت جانباً، لتقع فوق كرسي، ومن ثم إلى الأرض. لم يستطع دانكن أن يدافع عن نفسه أمام قبضة روب التي تشبه المنجل، وتراجع قليلاً إلى الوراء ليستجمع قواه مرة ثانية ويندفع بجنون نحو روب مهدداً بقبضة يده القوية. «أراك هنا، فتعال إذاً، لقد انتظرت طويلاً هذه اللحظة!»

صرخت جانسي: «لا، لا، انتظر.»

لم يهتم دانكن لنداء جانسي، بل أسرع يلطم وجه روب، وتبعثر كل شيء في الغرفة وتطايرت الطاولة الصغيرة في الهواء لتهوي مع الزينة التي تعلوها فوق الأرض محطمة مهشمة. في البداية كانت المعركة متعادلة في ما بينهما، لأن روب كان متناسق الجسم قوياً، ولكن كان دانكن أصغر سناً، وأطول قامة، ومضى عليه أشهر من الغضب والسخط والمعاناة في العثور على جانسي. وأخذ في النهاية ينتصر على خصمه روب بقبضات متتالية وعنيفة.

«توقف! توقف! هل تسمعني؟» لكنه تابع عمله ولم يصغ لنداءات جانسي، وبقوى خائرة التقطت ذراع دانكن في محاولات بدت مستحيلة وهي تسلخه عن روب، لكنه دفعها بعنف فسقطت على الأرض بعجز. كذلك بدا روب عاجزاً مترنحاً أمام قبضات دانكن العنيفة. فأسرعت جانسي نحوه

www.liilas.com

لتحميه بجسدها وصرخت في وجه دانكن: «اتركه بسلام!»

تراجع دانكن وهو يلهث غضباً والدم يقطر من شفته. «حسناً، سأتركه طالما يريد الاختباء وراء امرأة.»

«ابتعدي، دعيني أمسك به.» وحاول روب دفعها جانباً، لكن جانسي أوقفته بعناد.

«لا، لا تخف فأنا أعرفه.»

حدق بها بدهشة. «لكنه كان يهاجمك. وسمعتك تصرخين.»

«نعم، لكن الأمر بخلاف ما تفكر به، آه، يا روب، لقد أظهرت شجاعة نادرة، ولكن أرجوك لا تصطدم به مرة أخرى.»

عندما حاولت مساعدته على الوقوف على قدميه، دفعها عنه بلطف. «من هو إذاً؟»

«من أنت بحق السماء؟» تقدم دانكن وكأنه يريد مزيداً من العراك.

فتقدمت منه جانسي بسرعة. «ابتعد عنه، إن روب جاري.»

«هل تريدين أن أصدق هذا؟»

«إنها الحقيقة!»

«ولكن ما الذي كان يفعله في الطابق الأعلى؟» صرخ دانكن بعنف.

«لقد جاء من أجل أن يعلق الستائر الجديدة!»

احتار دانكن وبدا مندهشاً لا يفهم ما يجري ويدور وتمنت جانسي أن يبقيا بعيدين عن بعضهما البعض. لكن روب أفسد كل شيء حين قال: «هل هذا هو الرجل المعتوه الذي هربت منه.»

«حسناً، حسناً، يبدو أنه جار مقرّب جداً منك.» قال دانكن بلهجة حادة ثم أمسك بذراع جانسي. «ألن تردي عليه؟ هل أنا ذلك المعتوه الذي هربت منه... أو هل كان الرجل الآخر؟»

«أتركها.» قال روب بعد أن تحسن قليلاً وأظهر استعداداً للمعركة مرة أخرى. واستدركت، يجب أن تفرقهما وتمنع حدوث عراك مرة ثانية، فالتفتت نحو روب قائلة: «شكراً لمساعدتك لي، وأرجوك أن ترحل، فباستطاعتي حل هذه الأمور، وسأكون بخير.»

«لن أتركك بمفردك.»

«لا تخف، فهو لن يؤذيني.»

«لن يؤذيك؟ فما الذي كان يقوم به عند دخولي عليكما إذاً؟»

احمرت وجنتا جانسي وهي تنظر إلى وجه روب المتسائل والمتردد، فما كان من دانكن إلا وقال: «عليك اللعنة، اهتم بشؤونك.»

«أيها المعتوه الأبله! لا تلمسها هل فهمت؟»

ابتسم دانكن باستهزاء. «لماذا لا؟ إنها ليست المرة الأولى، وقد فعلت أكثر بكثير مما تظن.»

«أيها...» واندفع روب بغضب نحو دانكن لكن جانسي فقدت أعصابها فجأة وأخذت تصرخ. «حسناً، تعاركا ما شئتما، أيها الغبيان.» وتحولت عنهما إلى خارج الكوخ.

لحقا بها، وكان روب ما زال في حالة هياج شديد ومستعداً للعراك مجدداً لو فقط تسمح له، ولكن ردة فعلها وغضبها جعلاه غير متأكد الآن. بينما كان دانكن ببساطة يتمتع بالحالة التي وجد فيها. وأسرع روب للحاق بها وقال: «هل صحيح الذي قاله؟ هل كنتما على...؟» وتوقف عاجزاً عن صياغة كلماته.

أجابته جانسي ببرود: «نعم.»

تشنجت عضلات وجهه ففهمت جانسي بأنها خسرت صديقاً. ثم قال: «سأتركك إذا لتتفقي معه.» لكنه أضاف

www.liilas.com
المحروسة من الله

ببرود: «سأكون في المزرعة لو احتجت إلي، اصرخي عالياً وسأسمعك.»

قالت له بامتنان: «حسناً، شكراً لك، يا روب.» وأخذ يخطو خطوات واسعة فوق السهل نحو مزرعته، وكانت الشمس ساطعة، والطيور تغرد أعذب الألحان فوق الشجرة القريبة منها. كان المكان ينعم بسلام وبهدوء، لكن حضور دانكن المهدد والذي يقف وراءها، أفسد الكوخ بوقت قصير ولم يعد ذلك الملجأ الآمن. ودارت بهدوء لتواجهه.

كان دانكن ما زال ينتظر وهو ينظر إلى هذه الأمور بسخرية واستهزاء.

«لماذا جئت إلى هذا المكان؟» قالت باضطراب وضعف.

«أنتِ تعرفين جيداً سبب مجيئي. العلاقة التي كانت تربطنا ببعضنا البعض، تفرض توضيحات أفضل وأكثر إقناعاً من تلك السطور التي كتبتها إليّ. أريد أن أعرف من هو... ولماذا؟»

ابتعدت جانسي قليلاً ولفت ذراعيها فوق صدرها وكأنها تشعر بالبرد. «لا شيء لك في هذا المكان، يا دانكن. لا شيء على الاطلاق. والذي أطلبه منك أن تنسى كل الذي كان بيننا وترحل بسلام.»

«لا، لا.» ودار حولها ليقف أمامها وقال باصرار: «لن أنكسر بهذه السهولة. عندما قرأت كلماتك العذبة، صممت على العثور عليك، يا جانسي، وسوف تدفعين الثمن غالياً لما سببته لي.» ثم تابع يقول بحنق ظاهر: «أيتها الجبانة الصغيرة، كان عليك أن تكوني أكثر لياقة وتخبريني بالأمر وجهاً لوجه.»

«أنا لا أملك شجاعتك، يا دانكن.»

«لكنني ظننت ذلك.»

«إذاً، لقد كنت مخطئاً في ظنك.»

«هذا ما اكتشفته ـ للأسف.»

جعلتها رنة القسوة في كلامه تنظر إلى وجهه ودقات قلبها أخذت تتسارع. فطوال الوقت ومنذ قدومه لم تسنح لها الفرصة للنظر ملياً إلى وجهه الذي وجدته نحيلاً، وارتسمت خطوط مخيفة حول فمه، لم تكن أبداً هناك. هل هي سبب كل ذلك؟ وتمنت لو تستطيع لمس هذه الخطوط ومسحها عن وجهه، وتقبيله، وجعله يبتسم مرة ثانية. فشوقها الشديد إليه جعلها ترتجف هلعاً عليه.

اتسعت عينا دانكن وقطب حاجبيه. «جانسي؟»

«أشعر بالبرد، وسأدخل إلى الكوخ.»

لحق بها إلى غرفة الجلوس، التي كانت في حالة فوضى، فأخذت تحاول إعادة بعض الأشياء إلى ما كانت عليه، ثم انحنت لتلتقط بعض الزينة المحطمة فوق الأرض.

«اتركي هذه الأشياء...» ثم أوقفها على قدميها.

«أنا لا أنتظر أوامر منك! هذا منزلي، ولا يحق لك اقتحامه وتحطيمه على هذه الصورة.» قالت وهي تلتهب غضباً.

أخذ ينتفض بتوتر. «لي كل الحق! لقد كنا مخطوبين وعلى أهبة الزواج، هل تذكرين؟ لقد وعدتني بأن تكوني لي زوجة.»

«حسناً، وقد غيرت رأيي!» قالت هذا وهي تتركه لتتجه نحو المطبخ، فأمسكها بيدها اليسرى والتي كانت ما زالت طرية منذ العملية الجراحية. فأطلقت جانسي صرخة ألم، ثم أوقعت قطع الزينة من يدها.

«ماذا جرى؟» وتركها بسرعة مستفسراً عما حصل لها.

«ربما تأذيت عندما وقعت على الأرض.» عادت تكذب، وهي

www.liilas.com

تقف من دون حراك، تنظر إليه ولا تستطيع مصارحته بالأمر. فأخذ يلامس شعرها بحنان، فاقشعر بدنها لكنها قالت: «أرجوك، أرجوك أن ترحل، يا دانكن.»

«لا يجب أن أعرف كل شيء.»

«أنت لم تخطىء معي.» قالت جانسي بإلحاح. «لقد كان الخطأ خطأي أنا.»

«من هو؟»

«أنت لا تعرفه.»

«ولكن أين هو الآن؟»

ترددت وهي تحاول أن تجد كذبة أخرى تنقذها من هذا الموقف الصعب. «لم نتفق، لذا أتيت إلى هذا المكان.»

«لماذا لم تتفقا؟»

لم تستطع جانسي أن تجد جواباً كاذباً آخر فثارت قائلة: «اهتم بشؤونك!»

كان ما زال ممسكاً بها فشدها نحوه. «هذا هو شأني، وإلا لما كنت وجدتني في هذا المكان البعيد.»

«ليس عندي أقوال أخرى، فارحل بسلام.» وتحررت منه، وهي تتنهد بعمق ثم قالت بأعصاب باردة، وكأن الأمر لا يعنيها: «أنت غبي وقد مللت منك، ثم انتقلت إلى رجل آخر، هذا كل ما في الأمر، فلماذا تعلق عليه كل هذه الأهمية، وكثيراً ما تحدث هذه الأمور.»

«صحيح، ولكن ليس معي أنا بالذات، أنت المرأة التي أحببتها باخلاص وطلبت منها الزواج، أريد أن أعلم لماذا تلاعبت بمشاعري وتركتني... لذلك لن أتزحزح من مكاني قبل معرفة كل شيء.»

حدقت جانسي في وجهه بضعف وقالت له: «لكن، أنت لا تستطيع البقاء.»

«آسف جداً.»

«لكني لا أريدك هنا.»

بدأ دانكن بالابتعاد، لكنه استدار فجأة ليقف أمامها والغضب الهائج يشع من عينيه، فارتعبت جانسي مبتعدة. «من الأفضل أن أدق رأسك.»

«لقد سبق وفعلت ذلك مع روب، لكنك لم تتوصل إلى نتيجة تذكر.»

«لا، ولكن الذي حصل أسعدني وطيب خاطري بعض الشيء.»

دخلت جانسي إلى المطبخ لتحضر فرشاة وممسحة للغبار، فوقف دانكن يراقبها، من دون أن يمد لها يد المساعدة. وعندما انتهت من إعادة بعض الأشياء إلى ما كانت عليه، ألقت بجسدها على مقعد قريب، تهيء نفسها للذي سوف يأتي، بأعصاب مرتجفة وجلة.

قال لها ببرود وهو ينظر إليها: «إني أعني ما أقول، لن أرحل قبل أن أحصل على أجوبة مقنعة.»

هزت رأسها وهي غير قادرة على مقاومته أكثر ثم قالت: «كيف عثرت عليّ؟»

ضحك ساخراً وهو يجلس فوق مقعد بجانب النافذة. «هل تظنين أنكِ استطعت أن تخفي كل أثر لكِ، لكنني كنت على وشك الإمساك بكِ في لندن.»

«لقد فشلت مرتين... فقد كنت في شقة فيكي في تلك الليلة التي جئت تفتش عني.»

www.liilas.com

رفع رأسه متعجباً. «هذا غير صحيح، لقد فتشت المكان بدقة.»

«لقد كنت خارجاً على سلم الطوارىء ومن ثم صعدت للأعلى.»

«ذكية.» ونظر إليها بانزعاج وتابع يقول: «عندما اختفيت قرب مكتب محاميك، تأكد لي من أنك لن تعودي إلى ذاك المكان، وحاولت مع الوكالة التي كنت تعملين لديها، ومع أصدقائك الذين أتذكرهم، ولكنك اختفيت، فلا أحد يعرف مكانك... حتى ولو كانوا يعرفون فلن يخبروني. وبعد أسابيع وأشهر من التفتيش المضني، تذكرت بأنك ورثت كوخاً في يوركشاير من عمتك. كما أن الرسالة التي أرسلتها لفيكي كانت بطابع بريد يوركشاير. واستأجرت أشخاصاً ليبحثوا في دليل الهاتف علّهم يجدون اسم بروس في هذه القرية.» وابتسم معجباً بنفسه: «وبالطبع لم يكن اسمك مدوناً. فطلبت منهم التدقيق في اللوائح الانتخابية، هل تعرفين ما هو عدد الأشخاص الذين يدعون بروس في يوركشاير؟ سأعطيك لائحة بهم في وقت لاحق. وأدرج اسمك أخيراً، اسم سيدة مالكة في مناطق نائية... ولقد قلت لي مرة إن الكوخ على بعد أميال من أي مكان... وجئت لأستطلع بنفسي تلك اللائحة الأخيرة من الأسماء.» توقف للحظات، بينما كانت جانسي تحاول أن تبعد صورة غضبه وهياجه في العثور عليها. وتابع دانكن. «لقد كنت شديد العزم في العثور عليك، لم أكن متأكداً تماماً من أني سأعثر عليك في هذا المكان النائي، وبعد تحريات قليلة مع القرويين، تأكد لي بأني سأجدك أخيراً... وراقبتك عن بعد ووجدتك تقفين أمام الكوخ.»

إنه الرجل الذي شاهدته عن بعد وهو يستطلع المكان بمنظار وظنت أنه أحد الجوالين... وتذكرت أنها لم تعطِ الأمر أي أهمية. لكنها فكرت بالرجل الذي يحبها أكثر من الحياة نفسها ويجب عليها أن تتجاهله في الوقت نفسه. وأخذت تنظر إليه بشوق وحب شديدين، لكنها أبعدت وجهها حتى لا يرى انفعالاتها.

وقف دانكن بقامته الطويلة وحضوره المحبب. «لذلك، وبما أني أجهدت نفسي في العثور عليك، أرى من الصعب الذهاب من دون الحصول على ما أريد.»

«ما الذي تريده؟» قالت له وهي تحدق به باعجاب.

«لقد قلت لك، أريد توضيحاً منك.»

«وينتهي الأمر؟»

ابتسم بتهديد. «في الوقت الحاضر فقط.»

لم يعد باستطاعتها احتمال حضوره أكثر وعلى هذا النحو فقالت. «لا تستطيع البقاء هنا ولا يوجد في القرية فنادق.»

«أنا لم أقصد البقاء في القرية، سأبقى هنا في هذا الكوخ.»

«من غير الممكن أن تفعل هذا!» صاحت وهي تحدق فيه بخوف شديد.

«ولماذا؟»

«لأنه منزلي وأرفض رفضاً قاطعاً بقاءك فيه.» وضحك بسخرية، وتابعت تقول: «والقرويون لديهم عاداتهم وتقاليدهم القديمة ويرفضون بقاءنا مع بعضنا البعض.»

تابع دانكن ضحكته الساخرة. «هل تظنين بأني سآخذ هذا الأمر بعين الاعتبار؟» وضع يده اليسرى تحت ذقنها ورفع وجهها وأردف: «خاصة بعد الذي كان بيننا.»

ابعدت جانسي وجهها بحركة متوترة، جعلت شعرها يلتف

www.liilas.com

حول وجهها. وطرأت على بالها فكرة فقالت وهي تشعر بالانتصار: «لا تستطيع البقاء هنا، فأنا أنتظر فيكي لتمضي أجازتها معي.»

«عظيم، فوجودها سيوقف ثرثرة القرويين.»

«لكن، لا مكان لك، فالكوخ صغيرة و...»

«سأنام فوق ذلك المقعد الطويل، أو على الأرض. فأنا أتيت إلى هنا لأبقى.»

انهارت قوى جانسي وفهمت أن لا جدوى من المناقشة مع دانكن، والذي تريده هو الانفراد بنفسها والتفكير في المستجدات التي حصلت. فحاولت الخروج من الغرفة، لكنه ناداها.

توقفت من دون أن تنظر إليه. «نعم؟»

«لماذا تخليت عن مهنتك؟»

فوجئت جانسي بسؤاله والتفتت بسرعة إليه، ولكن قبل أن تجيب تقدم منها وأمسك يدها قائلاً: «هل أجبرك ذلك الرجل القذر الذي أخذك مني على ترك عملك، بعد أن جعلك حاملاً؟ ألهذا السبب ترتدين هذه الملابس الغريبة؟» وحاول رفع سترتها فصرخت برعب شديد.

«لا! لا تلمسني، أرجوك أتركني.» وتراجعت إلى الوراء مبتعدة عنه. وبدا دانكن حائراً من أمره يكتنفه الغموض والتساؤلات.

«إنك وللمرة الثانية توجهين إلي مثل هذا الكلام، هل تجدينني كريها إلى هذا الحد؟» لم تستطع الإجابة، لكن كل الذي استطاعت فعله هو التحديق في وجهه، إلى أن قال لها: «أريد منك توضيحاً واعتذاراً، سأبقى هنا وسأجعلك تزحفين إلي، هل تفهمين؟

الفصل الخامس

حلّ صمت رهيب بعد انفجار دانكن الغاضب، الذي نتجت عنه صدمة بليغة في أعماقهما. إنها صدمة الغيرة والمرارة التي تركت أثراً دامياً في قلبه. فهذه هي المرة الأولى التي يعبّر دانكن فيها عن مشاعره بكلمات. تراجع إلى الوراء وهو يطبق قبضتيه في محاولة للسيطرة على نفسه.

لم تستطع جانسي النظر، فهي متأكدة بأنها لو فعلت، ستفقد مقاومتها، وتهب إليه لتؤكد له حبها الذي يريده ويطالب به بقوة. وأنتها الشجاعة من مكان مجهول لتستدير وتتجه نحو المطبخ. تبع خطواتها بعد لحظات بأعصاب مشدودة. «لقد تركت سيارتي في أسفل التل. وأريد المجيء بها إلى هذا المكان، ولا تحاولي اقفال الباب، فأنا في حالة من الغضب الشديد ولن يمنعني شيء من تحطيمه.»

كان وجهها شاحباً، فبدلت جانسي حذاءها واستعدت للخروج واتجهت نحو الباب الأمامي.

«إلى أين أنتِ ذاهبة؟»

«إلى منزل روب.» قالت وهي تجهد نفسها في أن تكون عادية معه.

«ولماذا؟»

لم تجب جانسي، بل نظرت إليه نظرة معبرة. فقال لها. «لا بد وأنك معجبة به.»

«إنه صديق وجار مخلص.»

www.liilas.com

«لا أكثر؟»

«لا.»

«لكنه معجب بك.»

لم تجب جانسي متجاهلة ما نوّه به دانكن، وخرجت من البيت.

لحق بها دانكن مؤكداً لها: «لن تستطيعي الافلات مني مرة ثانية.»

ضحكت بمرارة قائلة. «أعلم ذلك جيداً، ولن أحاول مجرد التفكير بالهرب.»

لقد ترك دانكن سيارته بين الكوخ ومزرعة روب. ألقت جانسي نظرة حزينة نحو سيارته ورأتها محملة بأغراض السفر الضرورية، وكأنه كان مستعداً لبحث شاق وطويل. أحست بقلبها يعتصر ألماً وحزناً عليه، ثم أخفت وجهها، لأنها لا تريده أن يقرأ علامات الاهتمام والتأثر، فهذا أفضل لهما معاً. لقد صممت وعزمت، ولن يغير شيء من عزمها. ولا مجال للعودة عن ذاك القرار الآن، خاصة لأن الكذبة التي لفقتها كبيرة وسببت الأذى والألم، وعليها أن تتابع السير فيها.

وقف دانكن أمام سيارته وهو يراقب جانسي تخطو خطوات ثابتة نحو مزرعة روب. وكان الباب الخلفي للمزرعة مفتوحاً كالعادة، عبرته إلى المطبخ النظيف الذي يطل عليه روب، ردهة المنزل. لقد كان واقفاً وراء النافذة الوحيدة التي تمكنه من مراقبة الكوخ. عندما دخلت جانسي، بقي في مكانه ووقفت للحظات قبل أن تسأله: «هل بامكاني استعمال الهاتف؟»

«أنت تعرفين أين تجدينه.»

دخلت جانسي إلى غرفة المكتب المرتب والأنيق. وطلبت

رقم هاتف صديقتها فيكي. سمعت صوتها، لكنه لم يكن سوى شريط مسجل يطلب منها أن تترك رسالتها. وطلبت جانسي بإلحاح شديد: «أنا جانسي. أرجو أن تاتي إليّ في أسرع وقت ممكن. لقد عثر عليّ دانكن وأنا بحاجة إلى مساعدتك. اتصلي بي على هذا الرقم.» وقرأت عليها رقم هاتف روب.

أعادت سماعة الهاتف إلى مكانها، وهي تتساءل عما إذا كان هناك شيء آخر باستطاعتها فعله. لكنها لم تتوصل إلى حل آخر. وعندما عادت لاحظت أن روب ما زال واقفاً مكانه وراء النافذة. وفور دخولها استدار نحوها ليقول لها: «من يكون؟»

«إنه... لقد كان خطيبي.»

وسعت عيناه بدهشة. «هل كنت ستتزوجين منه؟»

«نعم.»

«ما الذي حصل بينكما؟»

ترددت جانسي قليلاً لتقول: «هربت منه.»

«ماذا فعل لك؟»

«لا شيء. فقط... قررت تركه.»

«لا بد وأن شيئاً قد حصل. هل ظهر منه شيء؟»

«لا. لم تكن غلطته. الأمر لا يتعلق به اطلاقاً.»

«هل هذا يعني أن حبك له قد انتهى.»

كان من السهل جداً أن تقول نعم، لكن كان هناك خيط رفيع من الأمل في صوت روب ولأنها لم ترد أن تشجعه قالت بحزم: «لا.»

قطّب روب حاجبيه وقال: «هل تعنين بأنك ما زلت على حبه؟»

www.liilas.com

لم تجب وتقدمت نحو النافذة، ورأت دانكن قد نقل سيارته إلى الكوخ وأدخل أمتعته إلى الداخل.

«لا بد وأن هناك سبباً لهروبك منه... هل يعلم لماذا تركته؟»

هزت جانسي رأسها تنفي. «لا، لم أطلعه على السبب.»

بدا روب حائراً لفترة ثم قال: «لقد كنت في غاية اليأس عند وصولك إلى الكوخ، ضعيفة و...» وتابع يقول مستفسراً: «هل كنتِ مريضة؟ هل تعانين من ذلك المرض...؟» ارتجفت أوصالها ولم يستطع متابعة ما أراد قوله.

امتقع وجه جانسي، وهي تلتفت نحوه بارتياك. «المرض؟»

«تعرفينه جيداً. إنه المرض الشائع في المدن... السيدا.»

أطلقت جانسي ضحكة قصيرة تنم عن ارتياحها وقالت: «لا. لا، فأنا لست مصابة بهذا المرض، يا روب.»

تركته واتجهت نحو الكوخ، وهي تفكر بأنها كانت محظوظة بعض الشيء.

وقفت جانسي عند البوابة الحديدية للكوخ، ونظرت في الأفق وهي تفكر كيف أن روب ابتعد عنها ظناً منه بأنها مريضة بالسيدا. وإذا أخبرت دانكن الحقيقة كاملة هل تكون ردة فعله مثل ردة فعل روي؟ لكن هل تتجرأ الآن على الدخول إلى الكوخ، حيث هو هناك بانتظارها؟ وفكرت بالهروب والجري بعيداً، والاختفاء في الضباب الكثيف، على أن لا تعود أبداً.

نمت هذه الفكرة في رأسها، وتخيلت نفسها تجري فعلاً في المسافات الشاسعة مخلفة وراءها كل أتعابها وأحزانها التي نغصت عليها حياتها. وبينما كانت تفكر في كل هذه الأمور سمعت خطوات دانكن من ورائها.

«حسناً، كيف حاله؟»

«ماذا؟» وللوهلة الأولى لم تع ماذا كان يقصد. «آه... إنه بخير. لقد أحاط السواد عينه بعض الشيء.»

«لقد دافع عنك ببسالة، لكن مزاجي لا يسمح بالاعتذار منه.» اقترب دانكن ووقف بجانبها ينظر مثلها نحو البعيد.

«لماذا لم تعودي إلى لندن بعد أن تعب وتركك ذلك الرجل الذي هربت معه؟»

تأوهت جانسي وهي متأكدة بأنه لن يتركها بسلام. «لم أرد ذلك.»

«هذا اعتراف واضح بأنه تركك وطردك من حياته.»

«أنا لا أعترف بشيء. على العموم، فكر بما تشاء.»

أمسك دانكن بذراعها عندما حاولت الابتعاد. «لقد ظننت بأني عرفتك وفهمت أخلاقك، واطمأننت إليك، وسعدت بأني مع فتاة طيبة ونظيفة. لم يخطر ببالي أبداً أنك قد تتركينني وتهربين مع شخص آخر، وكنت أظن طوال الوقت بأنك وفية وصادقة في عواطفك. وصدقتك، وصدقت محبتك لي.» كان يكلمها بصوت مضطرب وأصابعه تشد على ذراعها اليمنى بعنف فلذلك لم تؤلمها.

هزت جانسي كتفيها بعدم اكتراث. «لقد جرت الأمور بسرعة بيننا. ربما لم يكن لدينا الوقت الكافي لكي نعرف بعضنا البعض أكثر.»

«تعنين أن الوقت لم يكن كافياً لأتعرف أكثر إلى مراوغتك وخداعك لي.» قال دانكن باحتقار شديد.

حدقت به ونيران الغضب تتأجج في عينيها. أرادت أن تقول شيئاً، لكنها تراجعت متذكرة بأن له كل الحق في شكوكه.

www.liilas.com

«لماذا لا تردين؟ آه طبعاً، ذلك لأنك تظنين نفسك متحررة. أهكذا يكون التحرر، يا آنسة؟»

«أنا لست متحررة كما تظن.» قالت جانسي وهي حزينة.

«لستِ؟» وأخذ يرمقها بنظرات مريرة حانقة.

«إذاً من يكون ذاك الرجل الذي هربت معه؟ هل هو من أصدقاء الماضي؟ أم رجل تعرفت عليه في اليونان؟» ولما لم تجب جذبها من ذراعها لتستدير وتواجهه وقال: «لقد تحدثت مع كل من كان معكِ في الرحلة إلى اليونان، وقد كان جوابهم بأنكِ كنت تعيشين حياة مثالية، لا تهتمين سوى بالمهمة الموكلة إليك ثم تذهبين إلى النوم باكراً كل ليلة. لكن، قد يكونون كاذبين، أو ربما طلبت منهم أن يدّعوا ذلك، هل كان أحد الرفاق في الرحلة؟»

«لا.» ولمحت وجهه الشاحب الهزيل، وعادت تحاول بيأس للمرة الأخيرة. «دانكن، أرجوك توقف عن هذا الحديث. أرجوك أن ترحل وأن تبحث عن فتاة أخرى. حاول أن تنساني وانسى أننا التقينا. اشفق على نفسك المحطمة واترك هذه الأفكار السوداء.»

«دعيني اكتشف وحدي بأنها ليست أفكاراً سوداء.» وتوقف يلتقط أنفاسه ثم تابع: «ولن أرحل قبل أن أعرف كامل القصة بتفاصيلها الدقيقة.»

نظرت جانسي بأسى وهي تتساءل هل تستطيع تأليف قصة تخبره بها، ولكنها تعرف أن ذلك لا يكفي، فغضبه أصبح عميقاً ولن يهدأ إلا بعد أن يضمها إلى صدره ويجبرها على الاستسلام ولكن رفضها له أهان كرامته ورجولته أكثر من أي شيء آخر، وتساءلت هل يغفر لها إساءتها؟

يجب أن لا تدعه يقترب منها، فنظرت بعزم قائلة: «لدي شاهد

يؤكد مهاجمتك لي. فإذا حاولت أن تلمسني مرة أخرى سأوقفك بتهمة الاغتصاب.»

لكنه ردّ باستهزاء: «وهذا ما يرضيك؟»

«لا، هذا لا يرضيني أبداً.» وقرأت في نظراته عدم المبالاة. «أنا أعني ما أقول، يا دانكن.»

لقد كان انذاراً مبتذلاً. وتحولت عنه لتدخل إلى الكوخ من الباب الخلفي، وكان دانكن وراءها تماماً يمشيان بصمت مطبق. وقفت جانسي في المطبخ مترددة، لا تدري ماذا تفعل؟ وكيف ستتعامل مع هذه الحالة التي وصلت إليها؟ لكن دانكن قطع هذا الصمت وقال: «سأنقل أمتعتي إلى الطابق العلوي، أين غرفتي؟»

«جدها بنفسك.» وطرأ على رأسها فكرة عظيمة جعلتها تسرع إلى الطابق العلوي وإلى غرفتها وأحكمت اغلاق بابها. ثم احتضنت صورة لها ولدانكن احتفظت بها دائماً وفي كل مكان حتى وهي في المستشفى كانت دائماً تحت وسادتها. لقد التقط هذه الصورة والد دانكن عندما كانت مدعوة إلى العشاء في منزل والديه حيث أعلنا خطوبتهما، كانا يحتضنان بعضهما البعض في الصورة ويضحكان بمرح.

أخذت جانسي تلمس الصورة بحنان وكأنها لو لمستها بخشونة، قد تفسد تلك السعادة التي ينعمان بها. ولكن عليها أن تخبئها، لقد حالفها الحظ في عدم رؤية دانكن للصورة حتى هذه الساعة، فلو عثر عليها لتأكد بأنها ما زالت تحبه. واحتارت أين تخبيء الصورة، ربما فوق الخزانة؟ أو داخل أي حقيبة يد؟ لا، فهذه أماكن سهلة وواضحة.

طرق دانكن على باب غرفتها فارتجفت جانسي، وأحكمت القبض على الصورة. «جانسي؟»

www.liilas.com

«ماذا تريد؟»

«لا أدري ماذا أفعل بالسرير والستائر في هذه الغرفة؟»

«بما أنك تريد استعمال هذه الغرفة... فوضبها بنفسك.»

صرخ باستهزاء: «يا لحسن الضيافة.»

سمعت خطواته وهو يعود إلى غرفته. فتنهدت بارتياح وأسرعت تسحب الدرج السفلي للخزانة كلياً وتخفي الصورة في الفسحة الأدنى منه ثم تعيد الدرج إلى مكانه. قد تشتاق إلى هذه الصورة، ولكن، يا لهذا الغباء فالرجل هنا وهي في متناول يده. لكن هذا الرجل ليس دانكن الذي كانت تعرفه والذي وقعت في حبه، هذا الرجل هو الجهة الأخرى من القطعة النقدية. رجل سيطر عليه الغضب وحب الثأر. وارتجفت بخوف وهي تفكر في الأيام المقبلة وما تخبىء لها، لكنها عادت واطمأنت، ستكون فيكي هنا عما قريب، إنها صديقتها الوفية وحالما تسمع رسالتها وصوتها المتوسل الخائف، ستحضر في أسرع وقت ممكن. كذلك روب، سيسرع ملبياً نداءاتها في ما لو احتاجت لذلك، على الرغم من حنقه عليها.

يجب أن تكون عملية في تحركاتها، وتعيش حياتها ساعة بساعة، ويوماً بيوم، ولن يكون صعباً عليها، وهذا ما سعت إليه، منذ إجراء العملية الجراحية لها، ومنذ محاولتها الخروج من حياة دانكن، فهي تتعاطى مع الأيام كيفما تأتي وبأفضل الأساليب.

المسعى هو أن تكون عملية، إنها في هذه الغرفة ودانكن في غرفة أخرى وعلى بعد خطوات منها، ولكن قد يكون جائعاً ويريد تناول بعض الطعام، وتصورت نفسها وإياه إلى المائدة نفسها يجاهدان النفس في عدم النظر لبعضهما البعض. ولكنها قررت عدم التفكير بهذه الأمور واستقبالها

كيفما تأتي. ولكن هناك حمام واحد وسيتقاسمانه... تصورت أن وقت خروجها منه وهي ترتدي ثوب الحمام قد يتزامن مع مغادرة دانكن لغرفته فيراها ويلاحظ بأنها بثدي واحد!

يجب أن لا يلاحظ شيئاً... هذا ما يجب أن تعمل وتخطط من أجله. وساعدتها الظروف بعض الشيء، ففي الغرفة مغسلة تمكنها من تنظيف أسنانها وغسل وجهها ويديها، وإذا دعت الحاجة القصوى يمكنها الاستعانة بالمغسلة للاغتسال السريع على أن تستغني عن الدوش اليومي. ولكن الطريقة الوحيدة الأخرى هي في النهوض باكراً وارتداء ملابسها القضفاضة لاستعمال الحمام ثم العودة أيضاً بكامل ملابسها. يا للسخرية، فكرت جانسي... قد يكون الأمر مسلياً لولا بنوه من الحقيقة المجردة.

توقفت الضجة إنما عادت تسمع خطواته، ينزل درجات السلم ويصعدها مرتين متتاليتين. لا بد وأنه ما يزال ينقل أمتعته إلى غرفة نومه. أمتعته كثيرة، هل يفكر بالبقاء إلى الأبد وليس لفترة قصيرة؟ كم سيستغرق ذلك قبل أن ييأس ويعود إلى بيته؟ إنها لا تدري شيئاً! وهل طلب إجازة طويلة من شركة والده وكم تطول مدتها؟ بقاؤها في هذه الغرفة لن يفيدها بشيء. فتنهدت بعمق وفتحت باب غرفتها ثم هبطت درجات السلم نحو المطبخ.

نزل دانكن في الحال من غرفته وهو يحمل حقيبة العدة التي تخص روب. «إن هذه العدة لصديقك على ما أظن. في المناسبة، ما اسمه؟ لم تسمح لنا الظروف بالتعارف.»

«على من يقع الخطأ؟ اسمه روبرت لينتون، وهذه العدة تخصه.»

www.liilas.com

تعجب لنبرة صوتها وأخذ يقول: «هل أنقلها إليه؟»

«لا!» قالت وهي تستدير إليه. «اترك روب لشؤونه. ولا شأن له في قضيتنا على الاطلاق.»

«ما أسرعك في الدفاع عنه.» ثم أضاف: «حسناً، سأتركها للغد.» وتقدم ليفتح باب غرفة أمامية. «ما هذه الغرفة؟»

«إنها غرفة كانت تستعملها عمتي للذين يودون الاتصال هاتفياً.»

«وهذه؟» وأشار إلى غرفة خلفية: «تبدو لي غرفة الطعام.»

«نعم.»

«الظاهر أنك لا تستعملينها.»

«كلا.»

«ولماذا؟»

«من السخافة أن أتناول فيها الطعام بمفردي، لذلك أتناول وجباتي في المطبخ أو في غرفة الجلوس.»

«وفي الاحتفالات؟»

ضحكت بمرارة. «أنا لا... أحتفل.»

لاحظت رنة الحزن في صوتها، لكنها أسرعت بالدخول إلى المطبخ فلحق بها دانكن. «ألا يزورك أحد؟»

«لا.» فتحت جانسي البراد وأخرجت منه علبة البيض.

«ولا حتى صديقك روب؟»

«إننا وفي بعض المناسبات، نتناول وجبات صغيرة عندما أطلبه للعمل في الكوخ، ولا يأتي قطعياً إذا كان هذا ما تقصده من كلامك.»

كان دانكن جالساً إلى طاولة في وسط الغرفة احتلت معظم مساحتها. «ألا يزورك أحد؟»

www.liilas.com

«كما يبدو فقط غير المرغوب بهم.» قالت وكأنها تعنيه بكلامها.

لكنه لم يكترث. «وماذا عن فيكي، لقد قلتِ بأنها قادمة... أم هذه كذبة ابتدعتها؟»

«إنها قادمة، وستكون ضيفة مكرمة، ولهذا السبب ابتعت الأثاث الجديد لغرفة النوم الإضافية.»

كسرت جانسي البيض ووضعته في وعاء وبدأت عملية الخفق. بينما كان دانكن يراقبها طوال الوقت بصمت، كانت تحاول التركيز على العمل الذي تقوم به، لكنها ومن دون نية منها كانت عيناها تلتقيان عينيه. أدركت أن تفكيرهما واحد، كان يمكن أن يكون هذا البيت هو البيت القديم في كنت، وهي تقوم بتحضير وجبات الطعام، وهذا بالطبع لو أنهما تزوجا. إنه مشهد مُرضٍ من الألفة والسعادة، بدلاً من لعبة الهر والفار وحالة التحدي والعقاب بينهما.

«ماذا... ماذا فعلت بذلك البيت القديم؟» وكانت الكلمات تتقطع على شفتيها.

تجهم وجه دانكن وهو ينظر عبر النافذة نحو الخارج. «هل يهمك الأمر؟» وقبض على أصابعه بعنف. «إنني ما زلت أملكه، فلم يعد لي أي نية في اصلاحه أو عرضه للبيع.»

جاءت كلماته باردة فيها الكثير من الحقد والعتاب، وأصابت جانسي في الصميم وهي تتابع اعداد وجبة الطعام، بينما كانت يداها ترتجفان طوال الوقت. إنها لا تستطيع تقبل وجود دانكن معها وقد وجدها أخيراً.

أعدت جانسي طاولة الطعام، ثم قطعت أرغفة الخبز بعد أن

www.liilas.com

وضعت وعاء الحساء. «لقد جهز الطعام.» أشارت باختصار إلى دانكن.

كان من الغرابة وجودهما إلى مائدة واحدة من دون النظر إليه. إنه حقيقة هنا بقامته المديدة وليس حلماً طالما راودها. فارتعد جسمها واهتزت يدها مما اضطرها إلى التوقف عن الطعام.

حدق دانكن في وجهها وقال: «هل فقدت شهيتك للطعام؟» ثم تابع باهتمام: «هل وجودي يمنعك من الأكل؟»

حاولت جانسي أن تتمالك أعصابها، فمدت يدها تلتقط الملعقة وتعود إلى تناول طعامها. على أي حال، فهو على حق، وجوده أفقدها كل شهية للطعام.

«ماذا كنت تقصدين في قولك أن روب يعمل هنا؟»

«لقد ساعدني بإعادة وتحسين الكوخ، كما كان يعمل في السابق، والآن يقوم بالاهتمام بالحديقة.» أجابت جانسي بارتياح مبتعدة عن أفكارها المضنية والتعيسة.

«هل تدفعين له أجراً؟»

«كلا.»

أرادت أن تتابع كلامها، لكن دانكن قاطعها بألم وحدة: «وماذا تفعلين إذاً... هل تحاسبينه على طريقتك؟»

اهتز نقنها غضباً وقالت بحدة: «دعني أكمل ما أردت قوله. يهوى روب السيارات القديمة. وقد تركت لي عمتي سيارة قديمة فاتفقنا معاً بأن يعمل في هذا المكان مقابل الحصول على تلك السيارة وقد كان الأمر ملائماً لكلينا.»

«آه، فهمت وعذراً لك.» لكن صوته لم يأت معتذراً. «وكم من الوقت يحتاج للحصول عليها؟»

«لست أدري، سيقول لي روب عندما يحين الوقت.»

حرك دانكن شفتيه وهو يتناول قطعة من الخبز. «قد يطول الوقت ويمتد، لكن يبدو أن روب مقتنع بذلك، وهذا يعطيه فرصاً كثيرة في ملاحقتك والتقرب منك وقت ما يشاء.»

أحست جانسي بأنه يحثها ويدفعها كي تفقد أعصابها. فتثور وتتكلم عما يريد معرفته. والاعتراف الذي يريده لم يكن من ضمن الحالة الجديدة التي وصلت إليها وخططت لها، لتتغلب على عواملها النفسية. ولكن يجب أن يفهم دانكن ويعي أكثر طبيعة العلاقة التي تربطها بروب. إنه يكثر عليها بأسئلته وله الحق في ذلك حتماً. كما تدرك أيضاً أن روب يريدها وهي تتهرب منه، وتبقي نفسها في آلامها وأحزانها. أما الآن فقد فهم روب أنه ليس له أمل في مجرد التفكير بها.

«هل صنعت هذا الخبز بنفسك؟»

«ماذا؟» سألت وهي تعود بأفكارها إلى الواقع الذي تعيشه الآن. «آه نعم.»

«اكتفاء ذاتي.» ألمح دانكن غير مصدق. «وهذا ما لم أتوقعه منك أبداً.»

نظرت إليه نظرة ثاقبة وقالت: «صحيح؟»

«ماذا جرى لعارضة الأزياء الطموحة، التي كانت تصبو إلى أعلى المراكز؟ الفتاة العاملة التي لا يوجد طعام في شقتها، لأنها تتناوله في الخارج؟ ماذا جرى للشعر المشرق، ولذلك الوجه الجميل؟ ماذا حصل لتلك الملابس الفخمة التي كنت ترتدينها؟»

أسندت جانسي مرفق يدها اليسرى إلى الطاولة ورفعت اليد الأخرى وهي تقول: «هل انتهيت من حسابك؟»

مدت يدها لتتناول صحنه، فأمسك دانكن رسغها. «لقد سألتك سؤالاً.»

www.liilas.com

«أعرف... أ...»

أدارت وجهها تحاول اخفاء الحزن الدفين في عينيها. لا بد وأنها تبدو مختلفة بوجهها الخالي من المساحيق وشعرها المعقود إلى الخلف بشريط قديم. لا بد وأنه يراها بشعة. شعرت بألم في أعماقها للحظة ولكنها أدركت بأن هذه الحالة من البشاعة التي يراها قد تساعدها أكثر في انهاء مهمتها. فقالت: «أنا لست بحاجة إلى الأناقة في هذا المكان، فالخراف في المراعي لا يهمها كيف أبدو، فمن يوم لآخر لا أشاهد سواها.»

«إذن لماذا أنتِ هنا؟» سألها مرة أخرى بإلحاح.

«لأني أردت ذلك وسعيدة لوجودي هنا.»

«هراء! السبب الوحيد لوجودك هنا، هو عدم جرأتك على العودة إلى لندن ومواجهتي وجهاً لوجه. إنها الحقيقة أليس كذلك؟»

بعد أن لوح بيديه، نهضت جانسي ووضعت الصحون في المغسلة ثم جاءت بأطباق البيض والسلطة ووضعتها على المائدة.

«أنت لا تفكر إلا بنفسك.» أجابت وهي تجلس على المقعد. «مجيئي إلى هذا المكان، لا علاقة له بك في أي من الأحوال.»

«لماذا جئت إذن؟»

نظرت إليه بتعب ظاهر. «مهما أحرجتني، يا دانكن، فأنا لن أقول شيئاً ولن تعرف شيئاً، فلماذا لا تلتهم طعامك وتخرس؟»

نظر إليها عابساً ومتوعداً: «يخيل إليك أنك انتصرت عليّ، ولكن لا، سوف أبقى في ملاحقتي لكِ إلى أن أعرف الحقيقة بكاملها.»

التقت نظراتهما في تحد، ولكن جانسي أشاحت بنظرها عنه أولاً وبيد مرتجفة أخذت تحك جبهتها وكأنها مصابة بألم في

رأسها. تناولا طعامهما بهدوء، مع العلم أن جانسي تناولت القليل منه. فقد كانت تحرك الطعام بشوكتها بعبث، وهي تتحاشى النظر إلى دانكن مرة ثانية. وبدأت تحذر هياجه المتزايد، متسائلة في ما لو كان سببه وجودهما مع بعضهما بعضاً أو من أمر خاص آخر.

بعد أن أنهيا وجبتهما أخذت جانسي تغسل الصحون. أما دانكن، فقد خدم نفسه بفنجان من القهوة ووقف يراقبها، من دون رغبة بأن يعرض خدماته عليها. كان باستطاعتها أن تشعر بتوتره وهو يراقبها بعبوس لكنها، وبالمقابل أخذت تعمل بتروٍ وبطء، مفسحة المجال أمامه، ليغير مزاجه.

الغريب في الأمر أنه وجد متعة وهو يراقبها تقوم بهذا العمل البسيط بشقاء وتعب. ولكن وفي النهاية انتهت من كل شيء، من غسل الصحون وتجفيفها، انتهت من مسح الأرض ولم يبقَ شيء باستطاعتها فعله. فمسحت يديها بفوطة المطبخ ثم علقتها مكانها. حملقت بدانكن بنظرة سريعة فاقشعر بدنها خوفاً من نظراته الشيطانية. لقد خطط من أجل شيء ما، وسوف ينتظر العمر بطوله حتى تقع جانسي في الفخ الذي نصبه لها.

غضبت فجأة، وحاولت أن تلعب دور الهر، بدلاً من دور الفأرة. لفت ذراعيها فوق صدرها، قالت وهي تجذبه إلى الحديث: «هل مضى عليك وقت طويل وأنت تبحث عني في يوركشاير؟»

«اسبوعان من الوقت.»

«صحيح؟ أين اتجهت أولاً؟»

قال بحدة: «هذا لا يهم.»

«آه، معك حق. لا بد وأنني خيبت آمالك.»

www.liilas.com

«ليس عندما حققت أهدافي.»

«لكنك لم تحقق... ولن تحقق.» قالت بعنف.

ضاقت عيناه وهو يقول: «هدفي الوحيد كان العثور عليك.»

«آه، صحيح. إلى متى تريد البقاء؟»

«حتى أنتهي من مهمتي.»

«وماذا عن عملك؟ لا يمكنك الابتعاد عنه إلى الأبد.»

«هذا لا يعنيك أبداً.»

«ولكنه يعني والدك كثيراً، ما المهلة التي حددها لك؟»

استشاط غيظاً ليقول: «قلت لك؛ إن الأمر لا يعنيك على الاطلاق... ثم هل يجب علينا الوقوف في المطبخ؟»

لكن جانسي تابعت ملاحقته بأسئلتها: «وتركت عملك بهذه البساطة؟ وبعد أن وضعت يدك على بعض العناوين التي قد توصلك إليّ، وقفت في وجه والدك تعلن له تخليك عن العمل، وأسرعت إلى هذا المكان.» بقي دانكن صامتاً يؤكد كلامها: «لقد كنت على حق.» قالت جانسي: «أنت قلق.»

«ألست محقاً في ذلك؟» تكلم دانكن وهو يعود إلى غضبه. «هل تعلمين ما يعني أن أكون في نيوزيلندا، غير قادر على الاتصال بك؟ ثم يأتيني بعدها اتصال من والدتي، تخبرني فيه بأنك تخلفت عن موعدك معها، وقد تركت رسالة وبجانبها خاتم الخطوبة في شقتي؟» توقف دانكن وأخذ يهز كتفيها بعنف. ويطل من عينيه الجرح البليغ الذي سببته له. «هل تعلمين ما يعني كل ذلك؟»

هزت جانسي رأسها وهي غير قادرة على مقاومته. «كلا. أنا...»

«أنتِ لا تعلمين طبعاً، ولا حتى يمكنك أن تتصوري بأي

طريقة أنهيت عملي في نيوزيلندا وسافرت عائداً إلى لندن لاستلم رسالتك آملاً في أن يكون الأمر خطأ بسيطاً يمكن اصلاحه.» وتوقف لاهثاً للحظات يلتقط أنفاسه. «وقرأت الرسالة، تلك السطور القليلة الباردة فقط تنهي ما كان أجمل حدث في حياتي وما انتظرت تحقيقه طيلة أيام عمري. كان بالنسبة إليك علاقة عابرة وعبارة عادية: آسفة، لكني وجدت شخصاً آخر.» وتلاحقت أنفاس جانسي بشدة وهي تدرك بأن ما من شيء يستطيع أن يوقف دانكن الآن. «جننت وأنا أتصورك في أحضان رجل آخر يعاملك المعاملة نفسها التي عاملتك بها. وكنت أتصور أن ما يجمعنا هو قصة حب لن تنتهي. وتريدنني أن لا أكون قلقاً، أيتها الخائنة الصغيرة؟»

عاد يهزها بعنف وعيناه تشتعلان غضباً. «توقفي إنك تؤلمني.»

سرّ دانكن للألم الذي سببه لها ودفعها جانباً بعنف فارتطمت بالحائط. وأخذت تفرك كتفها شاعرة بألم شديد وهي تلهث من العياء والتعب. استدار دانكن والمرارة تسيطر عليه، ومرت عدة دقائق قبل أن يستطيعا تجاوز تلك اللحظات المؤلمة. قطعت جانسي ذلك الصمت الرهيب ورأسها يضج بكلامه الجارح والمؤلم. لا بد وأنه لم يفصح أمام أحد عن العذاب الذي يعانيه والذي يكتمه في صدره. ولا شك أن أفراد عائلته هم الذين فقط قد ادركوا مدى عمق الأذى الذي سببته له.

«لقد تركت عملك إذاً؟»

«طبعاً.» قال بقسوة وهو يتقدم منها. «هروبك وابتعادك جعلاني غير قادر على العمل، ومنعاني من التركيز على أي شيء، فأصبحت عنصراً لا فائدة مرجوة منه.»

www.liilas.com

شعرت جانسي بأنها مجبرة على قول أي شيء وكل الذي استطاعت قوله: «أنا آسفة...»

قطع دانكن عنها الكلام. «لا يمكنك قول هذا لأنني متأكد بأنك لا تعنينه على الاطلاق... وعلى أي حال تأسفك لا يكفي.»

«لكنك سبق وطلبت اعتذاراً مني.» أرادت جانسي بقولها أن تذكره بطلبه.

«لقد قلت بأني سوف أجعلك تزحفين... لكن الوقت لم يحن بعد، فعندما أنتهي منكِ، سوف تخرّين أمامي ساجدة تطلبين مني الرحيل.»

«وهل سيغير هذا شيئاً؟ وهل سترحل في ما لو فعلت ما تريده الآن؟» تابعت وهي تستجمع قواها: «إنك مصمم على البقاء هنا إلى أن تحول حياتي إلى جحيم مطبق وعذاب لا ينتهي. عانيت وتريدني أن أعاني مثلك. جئت تطلب الثأر لروحك وجسدك مهما كلفك ذلك، جئت...» وتوقفت متذكرة جسدها الذي خانها وقلب حياتها إلى جحيم. «يا إلهي... لا، لا.» وأخذت تضغط على رأسها بعنف وكأنها تنتزع منه أفكارها السوداء والمضنية.

تقدم دانكن منها وسحب يديها من فوق رأسها ووجهه يمتقع ألماً. «نعم، قد تكونين على حق. وقد يكون هذا السبب الرئيسي الكامن خلف مجيئي إلى هنا... وربما بدأت أحصل على الذي أريده.»

جاهدت جانسي في حبس دموعها وتمالك أعصابها. ربما من الأفضل لها أن تبكي فهذا ما يريده ولكنها قالت بصوت حزين: «لم أعد أعرفك.»

أفلتها دانكن من قبضته وقال: «هل تظنين بأني تغيرت؟»

هزت رأسها وهي تتنهد بعمق. «لم أعد أعرف شيئاً، ربما لم تتغير، أو أنني لم أتعرف إليك جيداً.»

«وبمعنى آخر، لقد انتهينا من بعض.»

غمرت عيني جانسي نظرة حزينة مؤثرة: «نعم لقد انتهينا، ومن الأفضل أن تعي هذا الأمر بسرعة وتعود إلى منزلك.» ثم تابعت بلطف: «أعرف تماماً، يا دانكن، بأن الذي قمت به كان مشيناً، وكان لا بد لي من القيام به، وفكرت بانفصال سهل ونظيف. ولكنني أدركت بأني سأسبب لك الألم والغضب، وهذا أفضل بكثير من أن أخوض في الموضوع لتحاول اقناعي بالعدول عن فكرتي.» ونظرت إليه بقلب دام حزين، وهو يراقبها بعينين ضيقتين. «الغضب يساعد وبسرعة على تجاوز علاقة عاطفية لا فائدة منها بين اثنين، والغضب أفضل بكثير... من الخيبة والألم النفسي.» قالت بانكسار وهزيمة.

جاء صوت دانكن حاداً حزيناً. «هكذا ترين الأمر... علاقة لا فائدة منها؟ وقد كانت بالنسبة لي أعمق بكثير مما تظنين.» وارتجف وجهه بمرارة وهو يتابع: «لقد كنتِ حب حياتي، لم أحب امرأة كما أحببتك، لم أرد أي امرأة أخرى أن تكون حلم حياتي، لم أرد أي امرأة أخرى زوجة لي. قدمت لكِ نفسي وحياتي، لكنك رميت بكل ذلك، ودست على مشاعري من دون رحمة لتهربي مع... مع من؟ مع حبك الجديد؟ مع واحد من المعجبين الكثر الذين يحومون حولك.»

«لا أريد سماع أكثر من هذا.» ومشت محاولة الخروج من المطبخ، لكنه أوقفها.

«آه، أنا لم أبدأ بكلامي بعد، والذي قلته حتى الآن لن يفي بالغرض الذي أصبو إليه.»

www.liilas.com

انهارت ولم يكن بامكانها سماع المزيد أو الاستمرار في هذه الآلام النفسية. شدت على ذراعها التي تؤلمها وهي تبحث عن طريقة للصعود إلى غرفتها. تقدم منها دانكن في هذه اللحظة ولمس ذراعها برقة وهمس بعطف: «تبدين تعبة، تعالي واستريحي.» دهشت لهذا التغير المفاجيء في تصرفه معها. وبدا لطيفاً وهو يخفي رغبته في عينيه. حاولت التراجع، لكنه أمسك بيدها واتجه بها إلى غرفة الجلوس.

«هل لديك تلفاز؟»

انقادت معه إلى غرفة الجلوس بريبة وشك. بعد أن أشعل النور في الغرفة فقالت: «لا... فانا...»

قطعت كلامها وأخذت تصرخ بألم وهي تقف في منتصف الغرفة ويداها ممتدتان فوق وجهها. «يا إلهي، لا... لا.» لقد جاء دانكن بمنصته للرسم وعليها صورتها التي لم يستطع أن يكمل رسمها وكان صدرها من الرخام الأبيض ثابتاً وشاباً وفي غاية الروعة.

عادت تصرخ بعذاب وألم وهي تنتفض بعنف. «يا إلهي، كم أنت قاسي القلب.»

دهش دانكن لردة فعلها، لكنه قال بلهجة جافة: «إذا كنت بالفعل كما تصفينني، ذلك لأني تتلمذت تحت يدي معلم... أو ربما علي أن أقول معلمة.»

عادت ترتجف بتأثر بالغ وهي تصرخ: «تقول إنك جرحت في الأعماق لأنك خسرت حباً، ولكني أقول لك أنت لا تعرف ولن تعرف طعم الجراح الحقيقية. أردت النيل مني ومعاقبتي، لكنك مهما فعلت فلن توجعني أكثر من الجراح التي تلقيتها.»

الفصل السادس

هرعت جانسي نحو غرفتها، بخطوات متعثرة غير ثابتة، وهي تصعد درجات السلم. دخلت غرفتها وأحكمت إغلاقها، وفجأة خارت قواها فسقطت على أرض الغرفة. ذراعاها ملتفتان على صدرها تنهشا في محاولات يائسة للوصول إلى قلبها المتألم. هذه الصورة أرجعتها إلى تلك اللحظات التي وقفت فيها أمام دانكن ليرسمها. كانت قد وقفت أمامه بحب عميق له وبفخر عظيم للجسد الذي تملكه. لقد ذكرها اليوم بعذابات مميتة كانت قد تخطتها وداست عليها، لكنه أعاد إليها هذه الذكرى باضعاف مضاعفة، من دون أي رأفة. لقد كانت أنيقة لطيفة مليئة بالحيوية والنشاط، واليوم فهي أشبه بتلك الصدفة المحطمة. بكت من يأسها وكل جسمها يهتز. أرخت رأسها على ركبتيها، لكن من شدة حزنها لم يسمع صوت بكائها.

«جانسي؟» جاء صوت دانكن وهو يخبط بعنف على الباب.

«ابتعد عني.»

«أريد التكلم معك.»

«إذهب، واتركني بسلام.»

حاول معالجة قبضة الباب، لكنه كان مقفلاً بإحكام. كانت تزحف نحو سريرها ولما استوت فيه، دفنت رأسها في الوسادة وعادت إلى النحيب المؤلم. في هذه الأثناء كان دانكن ما زال يضرب على الباب وهي تبكي إلى أن أهلكها البكاء فغفت وراحت تحلم أحلاماً مؤلمة.

www.liilas.com

عندما استيقظت، كانت الغرفة غارقة في الظلام. فأضاءت النور الذي بجانبها لتجد أن الوقت قد قارب الساعة الثالثة صباحاً. لم تكن في حالة مرضية، حلقها جاف، وعيناها متعبتان أضنتهما الدموع. بما أن الغرفة باردة كالثلج، أسرعت بارتجاف تقفل النافذة التي اعتمدت أن تبقيها مفتوحة لتهوئة المكان، ونسيت أمرها. لكن عندما ألقت نظرة إلى الأفق، لاحظت أن إحدى غرف منزل روب مضاءة، لا بد وأنها غرفته. وتساءلت عن سبب بقائه ساهراً، ربما ضلت إحدى خرافه وهو بصدد التفتيش عنها، أو ربما جافاه النوم مثلها وهو ينظر من خلال نافذته نحو كوخها يتساءل عن تطور الأمور بينها وبين دانكن.

أسدلت جانسي ستائر النافذة وكأنها تقطع الطريق على روب، فهو الآخر لا تستطيع التمادي معه ولديها ما يكفيها من الأمور الواجب معالجتها. وخلعت عنها ملابسها وقلعت ثيابها التي سببت لها بعض الألم وهي ترتديها طوال النهار، ثم غسلت وجهها فتدحرجت بعض نقاط المياه الباردة فوق ذراعيها. أخذت تنظر إلى الصدر المستعار بكره شديد، إنه يشبه الصدر الحقيقي إلى حد كبير لكنه ثقيل الوزن. وعند ملامسته، فهو مثل طبيعة جسدها نعومة ولوناً. وصانعه عمل جهده ليجعله يبدو كالثدي الحقيقي وجعله بديلاً عنه قدر المستطاع.

وضعت الثدي المستعار في علبة خاصة به، ثم توجهت نحو سريرها لتتناول ثياب نومها من تحت الوسادة، متجنبة النظر إلى المرآة كعادتها. لكنها هذه الليلة وعلى غير عادتها، توقفت مترددة لبضع دقائق، ثم أضاءت الغرفة وتقدمت نحو المرآة القديمة التي كانت تخص عمتها والتي اعتمدت أن

تضعها في زاوية بعيدة عنها بحيث لا تصطدم بها في أي وقت من الأوقات. وها هي تجرها اليوم إلى منتصف الغرفة لتقف أمامها، وعكست المرآة جسدها الأبيض الجميل.

كانت تلك المرة الأولى التي تقف فيها أمام المرآة منذ إجراء العملية لكنها أبعدت نظرها وهي تشعر بالمرض وعادت تجبر نفسها على النظر مجدداً. وفكرت، تظاهري بأنك لست هي، أو احسبي أنها صورة لامرأة غريبة، غريبة تماماً. هيا تابعي النظر، فهي لن تؤذيك. ونظرت بعينين واسعتين وصراع نفسي حاد. إنك لست هي، وهي ليست حقيقة، لذلك بامكانك أن تعجبي بالأعضاء السليمة. ما هي عدد القُطب التي سحبت؟ عددها خمس وثلاثون قطبة. لقد زالت آثارها ولم تعد تشعر بحرارتها الملتهبة الحمراء. لقد قام بعمل ناجح ذلك الجراح للسيدة التي في المرآة، صحيح أنه لم يستطع الحفاظ على كامل جمالها، لكنه استطاع أن ينقذ حياتها من براثن الموت.

نظرت جانسي بألم وحرمان إلى آثار الجرح، لكن عينيها انتقلتا إلى اليمين، إلى الثدي الكامل والجميل كما عهدته. فجأة، أطلقت صيحة غريبة عبرت فيها عما يجيش في صدرها من قهر وألم. وأبعدت المرآة عنها بعنف. الثدي الكامل والوحيد يذكرها بآلامها ومعاناتها. ألم يكن من الأفضل أن تبقى على الاثنين معاً؟ لقد تعبت من ارتداء الثدي المستعار الذي سيرافقها حتى مماتها.

ارتدت جانسي رداء النوم الذي كان يخص عمتها، وكان ذا كمين طويلين وياقة عالية. كان يشعرها بالدفء في هذا الشتاء.

عادت تنام من جديد بقوىً خائرة ورأس مثقل بالهواجس

www.liilas.com

المقلقة. ولما استيقظت في التاسعة والنصف من صباح اليوم التالي، كان التعب ما زال مكانه وكان ساعات النوم تلك لم تفرج عنه. كان باستطاعتها ملازمة فراشها لكنها مشتاقة لرؤية دانكن الذي تشعر بالذنب نحوه. فاسرعت بالنهوض، إرتدت تنورة فضفاضة طويلة وسترة واسعة.

لكن دانكن لم يكن في الكوخ، ومن الواضح أنه تناول فطور الصباح فاسرعت جانسي إلى الطابق العلوي ورأت أن حاجياته ما زالت مكانها، لكنه لم يكن في الكوخ ولا في الحديقة ولا في أي مكان. نظرت من نافذة غرفته ورأت سيارته في مكانها. إذاً، فهو ليس بعيداً عن هذا المكان.

نظرت إلى سريره المرتب والأنيق، سحبت الغطاء ولمست الوسادة فوجدتها باردة مما يدل على أنه استيقظ باكراً. وأخذت تمرر يدها عليها تحاول النيل من عطره. لم يحتفظ بثياب للنوم، لأنه لا يرتديها أبداً. وكان يحب أن يراها في لباس النوم الساحر والمثير في تلك الليالي التي كانا يمضيانها أحياناً سوياً. أشرق وجهها وهي تتذكر إعجابه بها وتنهدت بعمق وحزن، ثم أعادت الوسادة إلى مكانها.

كانت أغراضه الخاصة مرتبة فوق الطاولة، فرشاة شعره ومشط، آلة للحلاقة وعطره. تناولت قارورة عطره وأخذت تتنشقه والذكريات الأليمة تتلاحق في رأسها. وأحست بالتشنج فأعادت قارورة العطر إلى مكانها، عندما سمعت صوت الباب في الأسفل يغلق بشدة. لقد كان دانكن، دخل ويستعد للصعود إلى الطابق الأعلى.

«هل وجدت الذي بتحثين عنه؟» سألها بصوت متهكم وهو يراها تخرج من غرفته.

ساعدتها لهجته لتتمالك أعصابها. «نعم وللأسف، كنت أتوقع رحيلك.» ونزلت درجات السلم وهي تلاحظ في يده سلة، إذاً، لقد خرج ليبتاع بعض الحاجيات من الدكان الوحيد في القرية.

وعندما اقتربت منه، نظر إلى وجهها الشاحب الخالي من المساحيق. فاتسعت عيناه بغضب وقال: «تبدين وكأنك لم تعرفي طعم النوم طوال الليل.»

«أظن أن هذا يرضيك.» وتقدمت نحو المطبخ. «أرى أنك كنت في القرية لشراء بعض الحاجيات.»

«نعم.» ووضع السلة فوق طاولة المطبخ. «فالبراد يخلو من الطعام حتى لعصفور صغير.»

«لم أكن أتوقع قدومك.» قالت بسخرية ثم تابعت: «لو أنك اتصلت بي، لكنت ذبحت لك عجلاً وبعض الخراف.»

«قلة النوم لم تسلب منك روحك المرحة.»

«صحيح؟» وأخذت تعد القهوة.

سألها دانكن وهو يغير اتجاه الحديث: «لماذا فقدت أعصابك عندما شاهدت الصورة؟»

كانت تتوقع هذا السؤال منه، وكانت مستعدة للإجابة عليه فقالت: «هل ظننت بأن الصورة أزعجتني وأثارتني؟ لا، لقد تهيأ لي أنك جئت للمكوث إلى الأبد.»

طبعاً، لم يصدقها دانكن، وهذا ما توقعته جانسي، لكن لم يكن هناك جواب أفضل. وانشغلت بتوضيب الحاجيات التي اشتراها والتي توضح بأنه يريد المكوث طويلاً، لكثرتها، حتى أنه اشترى كيساً كبيراً من الطحين.

رآها تنظر إلى الطحين بدهشة فقال: «لقد كان الطحين على لائحة مشترياتك.»

www.liilas.com

«آه، طبعاً... هذا لطف كبير منك.»

زمّ شفتيه وتعجبت من نفسها كيف تعامله بهذا الشكل... ذلك لأنها كانت تعيش كذبة كبيرة ودورها في هذه الكذبة هو أن ترفضه وتجعله يبتعد عنها. وهذا الانكار له يبقيه بعيداً، ولو قليلاً عنها، حتى تستطيع إخفاء مشاعرها الحقيقية.

جلست جانسي إلى المائدة، بعد أن سكبت لنفسها فنجاناً من القهوة.

قال دانكن مستهزئاً: «أرجوكِ لا تزعجي نفسك، فسأسكب القهوة لنفسي.»

لكنها تجاهلته بينما جلس بالقرب منها وبيده فنجان القهوة وهو يتأمل صورة وجهها. «ظننت أن الصحف تصك تباعاً أو تشترين بنفسك واحدة كل يوم. لكن المرأة في الدكان قالت بأنك لا تشترين الصحف أبداً، ولا تلفاز لديك. هل أردت الانعزال كلياً عن العالم؟»

«لدي مذياع.» قالت جانسي مدافعة عن نفسها.

«صحيح؟ أين هو؟»

حاولت أن تتذكر متى أصغت إليه آخر مرة، لكنها لم تتذكر. «قد يكون في أي مكان.»

«ألم تعد تهمك أمور العالم؟»

أخذت جانسي تفكر في كلامه ونظرها متجه نحو فنجان القهوة الذي بين يديها. لم تعد أخبار وشؤون العالم تهمها أو تهزها، طالما أنها ترى عالمها محطماً تحت قدميها. باستطاعتها أن تنظر من خلال النافذة لتعرف كيف سيكون الطقس اليوم. أما الأخبار المحلية فلا تهـ

طالما أنها لا تذهب إلى أي مكان. فالأحداث تتوالى، والقوانين تسن، والسياسيون يختلفون، وأزياء الموضة تواكب التطور الحديث، وهي قابعة في هذه المنطقة النائية في يوركشاير، بعدم اكتراث وبانعزالية تامة. فدانكن كان على حق عندما قال بأنها أصبحت انعزالية. «لا... لست انعزالية.»

«لقد تغيرت كثيراً.» قال دانكن وهو يعبس في وجهها. «ما الذي غيرك؟»

«الحياة على ما أظن.» ووقفت متجهة نحو الخزانة وأخذت منها علبة اسبرين ثم تناولت حبتين منها لتبتلعهما مع قهوتها. وكان دانكن يراقبها بصمت ثم قال: «هذه ملاحظة غامضة، قد تكرمين وتكونين أكثر وضوحاً.»

كان في صوته رنة تهديد ووعيد، فابتسمت جانسي بخبث قائلة: «كلا، شكراً.»

أمسك يدها صائحاً: «ما الذي دفعك للهروب من لندن؟»

صعقت لسؤاله وهي تراه ينظر باصرار وعناد إلى وجهها، نظرة تصميم ألهبت أعماقها. وتنهدت وهي تؤلف قصة جديدة: «حسناً، سأقول لك ما تريد معرفته.» وتوقفت للحظات ثم قالت: «كنت على علاقة حب مع أحد الأشخاص قبل معرفتي بك، لكنه عاد وأنت في نيوزيلندا، كنت أحبه وعاد من جديد ليملأ حياتي. وأدركت بأنني ما زلت أحبه. لذلك رحلت معه. هذا كل ما في الأمر.»

كانت تقاطيع دانكن جامدة لا تتحرك وهو ما زال يحدق في عينيها. «هل أحضرته معك إلى هنا.»

«لا، لقد ذهبت معه إلى محل إقامته في باريس.»

www.liilas.com

«هل هو فرنسي؟»

«نعم.» وشعرت بالارتياح لخيالها الخصب.

«ماذا جرى بعد ذلك؟»

وقالت بعنف: «كما حصل في المرة الأولى، لم تجر الأمور كما أردناها.»

«ولماذا؟»

ماذا ترد عليه، فخيالها الخصب لم يصل إلى هذا الحد وخاصة هذا الصباح. «لأن أحاسيسنا لم تكن متوافقة، والذي أردناه من بعضنا البعض كان فوق طاقتنا.»

«لكنكما كنتما متوافقين جسدياً.» قال بلهجة ساخرة.

أبعدت وجهها عنه وهي تقول: «في هذه الناحية، نعم، كنا متوافقين على ما أظن.»

«يجب أن تعرفي أكثر.»

نظرت إليه في حنق لملاحظته الخبيثة. «نعم لقد كان الأمر عظيماً.»

«أظن أنه كان رجلاً فريداً.»

«نعم، لقد كان.»

«ما اسمه؟»

«ماذا؟» واحتارت متململة.

«سألتك عن اسمه؟ لا بد وأنك تعرفين اسمه.»

«طبعاً، أعرفه.» قالت بسرعة. «لكن ليس في نيتي إطلاعك عليه.»

انتقل إلى جانب آخر من الحديث. «هل تركته... أم هو الذي أبعدك عنه؟»

«لا، أنا تركته.»

«كم استغرقت من الوقت لتكتشفي أنك لست متوافقة وإياه هذه المرة؟» أمرها دانكن بحنق.

«حوالى الثلاثة أشهر.» نطقت جانسي بهذه المدة بطريقة عفوية، آملة أن تضفي على قصتها الجديدة نوعاً من المصداقية.

«لماذا لم تعودي إلى لندن إذاً؟»

«لقد أجرت شقتي، فلا مكان آخر لي للعيش.»

سألها بسرعة: «لقد تركته وجئت إلى هذا المكان إذاً؟ ولكن لماذا إلى هذا المكان، فهذا ليس بمكانك؟»

أرادت أن تتحداه: «وكيف لك أن تعرف هذا؟»

رفض الهزيمة وقال متابعاً: «حسناً، لقد جئت إلى هذا المكان لتعالجي جروحك النفسية، ولكن لماذا انقطعت عن العالم هكذا؟ ولماذا أهملت نفسك فأصبحت هزيلة سيئة المنظر؟»

رشقت جانسي قهوتها وأرادت النهوض من مكانها فأمسكها دانكن.

«لم تردي علي؟»

تنهدت بعمق قائلة: «أردت تجاوز تلك المحنة العاطفية فانعزلت عن العالم طالبة الهدوء والوحدة... أحاول استعادة ثقتي بنفسي والتفكير بهدوء بمستقبل حياتي.»

«وهكذا تصرفت في المرة الأولى.»

«المرة الأولى؟»

«لقد سبق وقلتِ لي بأن ذلك الرجل الفرنسي كان حبك القديم وكنت على علاقة حب معه ثم انفصلتما.»

«آه، صحيح.» حاولت يائسة أن تفكر: «ففي المرة الأولى لم يكن جاداً ما فيه الكفاية... ولكن هذه المرة ظننت... أن الأمر

www.liilas.com

أصبح أكثر جدية. ولما لم تنجح علاقتنا، كان من الطبيعي أن أتأثر وأتألم.»

«آه، من الطبيعي.» وافق دانكن باستهزاء ساخر. «واخترت الطريق الأنسب وهجرته.»

«نعم.»

«كاذبة!» صرخ فجأة وهو يقترب منها. «لماذا لا تقولين الحقيقة؟»

«الحقيقة؟» قالت جانسي وهي تتعثر بخطاها إلى الخلف.

«نعم، اعترفي بأنه لعب بمشاعرك وعواطفك وبعد أن سئمك، طردك من دون أسف.»

«لا، أنا...» صرخت محاولة الدفاع عن نفسها، ولكنها عادت وفكرت، لماذا لا تتركه على ظنونه بها؟ فهزت رأسها وكأنها تقول له أنت على حق.

«إننا نقترب من الحقيقة فهذا هو سبب مجيئك إلى هذا المكان... فكرامتك ترفض تقبل الإهانة التي وجهها إليك،» قال دانكن وهو يشعر بنصر كبير.

نظرت جانسي إليه ببطء وحذر. «وماذا عن كرامتك؟»

امتقع وجه دانكن وقال: «ثلوثث.» ونهض متوجهاً نحو النافذة لينظر إلى المجهول.

أخذت جانسي تراقبه، فلاحظت نقنه القاسية ويديه اللتين تمسكان بقوة حافة النافذة. فتألمت لرؤيته على هذا الشكل وهي تلعن نفسها، لأنها اضطرت لأن تكذب عليه، وراجية في الوقت نفسه أن يقتنع ويرحل عنها. واقترب نحو الطاولة قائلاً: «يبدو أننا نعاني من المشكلة نفسها.»

«نعم.»

عاد يجلس وهو ينظر بثبات إلى وجهها. «لا بد وأنك تلقيت الأمر بحزن.»

«كذلك أنت.»

«لكنك اخترت طريقاً صعباً.»

«ما من طريق أفضل... أو أحسن.»

«لا، على ما اعتقد.» وأخذ ينظر إليها بعمق محاولاً أن يعرف مايدور في خلدها. لم تحتمل نظراته أكثر فاحنت رأسها حتى لا يكتشف كذبها. ثم سألها: «متى ستعودين إلى لندن؟»

تنهدت بارتياح عميق؛ وهي تشعر بأنه بدأ يصدق كلامها. «عندما أشعر بذلك.» أجابت وهي تهز كتفيها. «ستصبحين أنانية الأحاسيس لو بقيت في هذا المكان وقتاً طويلاً.» اقترح عليها.

«أنانية الأحاسيس؟» أتكون هكذا لأنها لم تنطق بالحقيقة المرة؟ «بالتأكيد لست كذلك، لقد أردت فقط بعض الوقت من الراحة والتفكير لأتجاوز تلك العلاقة العاطفية.»

«علاقة عاطفية؟» جاء صوت دانكن حاداً مرة أخرى. «وماذا عن علاقتنا، فماذا تسمينها؟»

قالت بسرعة وهي تستدرك خطأها: «هذا الأمر يختلف تماماً.»

«ما مدى... اختلافه؟»

«إنه يختلف، هذا كل ما في الأمر.»

ارتفع صوته متألماً وقال بانهزام: «أرى أنك تسمين علاقتنا بالعلاقة اللطيفة، غير المثيرة، أليس كذلك؟ فلم تكن تلك العلاقة التي ترفعك إلى ذروة الحب والعاطفة، تلك العلاقة التي ستتذكرينها ما دمت حية.» وتقدم بضع خطوات وهو يدفع

www.liilas.com

الكرسي من أمامه. «آسف جداً، كان عليك بأن تخبريني بذلك، لقد ظننت بأنك كنت سعيدة. وهذا فقط يظهر لك كم يمكن أن تكوني مخطئة... أم أنك كنت رائعة في الإدعاء؟»

من المستحيل أن تتركه يفكر بهذه الطريقة! فمهما عظم حجم الأكاذيب التي لفقتها، لن تسمح أو توافق على هذا الأمر حتى لو كان يعجل من رحيله. وابتعد عنها وهو غير قادر على النظر في وجهها. أسرعت إليه ووضعت يدها على ذراعه بحنان. سرت قشعريرة حارة في جسده، لكنه لم يلتفت إليها. «هذا ليس صحيحاً وأنت تعرف ذلك.» قالت بقوة: «أنت تعرف جيداً بأنه لا يمكنني التظاهر من دون أن تلاحظ ذلك. لا يوجد أي امرأة باستطاعتها أن تتظاهر بما شعرت... بما جعلتني أشعر.»

توقفت والألم يعصر قلبها، ثم تكلمت بصدق: «الذي كان بيننا كان عظيماً وخاصاً، وكان في غاية الروعة من الجمال.»

دار وهو يحدق بها. «لماذا إذاً...»

تنهدت جانسي وهي تعود إلى أكاذيبها. «كان عظيماً لبيقى ويستمر، ألا ترى معي ذلك؟ رائعاً كالحلم الذي يتلاشى حقيقة. ومن المستحيل العيش في الأحلام، فعندما غادرت إلى نيوزيلندا، صدمت بالحقيقة وشعرت بأن حياة زوجة وربة منزل ليست لي. فأنا ما زلت صغيرة لأستقر نهائياً وأنا... وأنا لم أرد أن أكون مقيدة لهذا النوع من الأمور الحياتية... أو لرجل واحد. وعندما... عندما ظهر بيار مرة أخرى، ذهبت معه هرباً من الارتباط الزوجي.»

«أراك الآن ملتزمة بهذا الأمر.» أشار دانكن بإيماءة منه. «ما الذي حدث؟ هل وقعت في غرامه حقاً؟»

«نعم، نوعاً ما.» اعترفت بألم.

«إذاً، من المستحيل أن تكوني أحببتني، لم يكن حباً حقيقياً، وإلا لما نظرت إلى رجل آخر.»

«ربما كنت مغرمة بالحلم نفسه.»

«نعم، ربما كذلك.» حدق بها لبعض الوقت بتعب ثم تقدم منها ممسكاً ذراعيها. «لكني لم أكن مغرماً بالحلم. لقد أحببتك أنت وأردتك أنت... لبقية أيام عمري.» وكان صوته مضطرباً حزيناً، ومن المحتم أن يضمها بوحشية. ولم تبدِ أي ممانعة.

حاولت جانسي جاهدة وبتوتر شديد أن تحتمل عواطفه الملتهبة، فرغبتها شديدة إليه بعد أشهر من الوحدة والفراق. وأحست بالحياة تدب في عروقها، وكأنها ولدت من جديد. وبعجز حاولت إبعاده عنها. حرّر دانكن ربطة شعرها وشدها نحوه بعنف مانعاً عنها أي تحرك.

ارتجف بشوق لها، لقد انتظر هذه اللحظات طويلاً وعاشها ألوف المرات في خياله. وعادت جانسي إلى الماضي القريب مقتاسية حاضرها وواقعها. عندما كان يضمها على هذا النحو، كانت ترى المستقبل باسماً مشرقاً لا نهاية له، مليئاً بالحب والسعادة في حمايته. وانزلقت يده فوق صدرها.

لم تشعر بهول الموقف في اللحظة الأولى، لكنها صرخت فجأة وهي تبعده بعنف عنها، وتدفعه بعيداً بخوف مميت. لفت صدرها بيدها وكأنها تحميه. «لا تقرب مني! ابتعد عني! لا تحاول لمسي مرة أخرى!»

كانت تصرخ بانفعال وجنون وأسرعت بالخروج إلى الباحة الخارجية عبر البوابة الحديدية وأخذت تجري نحو مزرعة روب، وشعرها يتطاير في الهواء بجنون.

www.liilas.com

انحنت جانسي قرب سياج مزرعة روب وهي تلتقط أنفاسها وهي تتساءل، هل كشف سرها؟ هل عرف الحقيقة؟ أخذت تنظر نحو الكوخ فقد يكون دانكن آتياً وراءها. لقد خرج فعلاً ووقف أمام البوابة الحديدية، يراقب ولا نية له في ملاحقتها. فتنهدت بارتياح وأسرعت تدخل إلى مطبخ روب.

«روب! روب، هل أنت هنا؟»

«في المكتب.» وفتح الباب بسرعة. «هل أنت بخير؟ هل سبب لك الأذى؟»

«لا.» وأخذت تستجمع قواها الخائرة. «لا، أنا بخير، ألم تتصل صديقتي بعد؟»

هزّ رأسه وهو يلاحظ تبدلاً في ملامحها. «لم تتصل بعد، فلو فعلت، لكنت نقلت لك الخبر كما تعلمين.»

«نعم، أنا...» وحاولت الابتسام. «أنا فقط متحمسة لسماع أخبارها. آسفة لازعاجك، إنني أراك منشغلاً.»

«ليس بالنسبة إليك. هل خرجت من دون معطف؟ هيا اقتربي من المدفأة، ففي هذه الساعة آخذ قسطاً من الراحة.» قال من دون أن ينظر إلى ساعة يده: «هل تشاركينني فنجاناً من القهوة؟»

وافقت بامتنان وجلست على المقعد القديم قرب المدفأة في المطبخ وهي على حالها من الارتجاف. «هل توصلت إلى حل مع صديقك؟»

«كلا.» استدار نحوها عندما وجه السؤال إليها.

«يا إلهي، عينك!»

«خطيبك له قبضة فولاذية.»

«خطيبي السابق.»

«مهما كان، يبدو أنه يود مشاركتنا القهوة.» قال روب ملمحاً لها وهو يرى دانكن من خلال النافذة.

رجفت قدما جانسي من تحت الكرسي وحاولت جاهدة تجاهل نفسها بينما كان دانكن يقرع الباب ويدخل عليهما. كانت عيناه تشتعلان غضباً، وهما خاليتان من الرحمة والعطف. وادركت جانسي بارتياح بأن دانكن لم يكتشف شيئاً من الحقيقة المؤلمة. واستدار دانكن نحو روب قائلاً: «لقد تركت علبة العدة البارحة، فأحضرتها لك لعلك بحاجة إليها.» لقد كانت العلبة ثقيلة الوزن، لكنه حملها بخفة ووضعها في زاوية من زوايا المطبخ.

«شكراً لك، أترغب في بعض القهوة؟» سأله روب بأدب.

«نعم، وأفضلها من دون سكر.» ثم استقر نظره على جانسي. «تبدين وكأنك في بيتك تماماً.»

«أرحب بجانسي في أي وقت وهي تعلم ذلك جيداً.» تكلم روب قبل أن تتفوه جانسي بكلمة واحدة. «كانت تأتي إلى هذه المزرعة منذ كانت طفلة صغيرة، وتقضي مع عمتها الإجازات الطويلة.»

قطب دانكن حاجبيه. «هل تعرفها منذ ذلك الوقت؟» وجال بنظره في أرجاء المطبخ محاولاً أن يجد لمسات امرأة. «هل تعيش بمفردك؟»

«نعم، منذ وفاة زوجتي وولدي.» قال روب بحزن. وتساءلت جانسي وهي تنظر نحو روب، هل ما زال يتألم للذكرى، وهي تعلم جيداً، أن إطلاع الآخرين بأنها ودانكن ما عادا مخطوبين يسبب جرحاً لا ينتهي.

«آسف للأذى الذي سببته لعينك.» قال دانكن برقة.

www.liilas.com

«الظاهر أنك استعملت كل قوتك معي.»

قدم روب لهما القهوة وجلس إلى الطاولة، وبعد تردد بسيط جلس دانكن بجانبه.

سأله روب: «هل أنت قادم من مكان بعيد؟»

«من لندن.»

«وماذا تعمل في لندن؟»

«أنا مهندس معماري.»

توقعت جانسي استياء دانكن لأسئلة روب المتلاحقة، لكنه لم يبد أي انزعاج. وجلست بهدوء وهي لا تكاد تصغي لحديث الرجلين. فالأشهر القليلة التي مضت مكنتها من معرفة روب أكثر. وباستطاعتها معرفة ما يريده من نبرات صوته لإنه رجل لا يتقن إخفاء مشاعره. ولما قال دانكن بأنه يهوى الرسم، سمعت من روب عبارة تق واحترام للذي يعمل بيديه الاثنتين. روب يحترم العمل الذي يقوم به لأنه يؤمن له معيشته. وتعرف جانسي ذلك حق المعرفة فقد كان يؤمن سير عمل المزرعة باخلاص وتفانٍ. وهو يدرك أنه غير قادر على خلق شيء جميل مثل خريطة مبنى أو حتى رسم صورة، لذلك كان يقدّر الذين يملكون هذه المواهب. وأحست جانسي للحظات بالغيرة، لكنها عادت وشعرت بالسعادة، لأن هذا يعني أنهما لن يعودا إلى العراك مجدداً؟

عندما سمعت اسمها خلال الحديث، التفتت لترى دانكن ينظر إليها وهو يقول: «لقد رسمت جانسي، وبدأت بلوحة أخرى لها... لكنها رحلت قبل أن أنتهي منها. يجب أن تراها فهي معي وضمن أغراضي.»

نظرت إلى دانكن وكأنها تسأله ماذا تريد بعد؟ لكن الهاتف

بدأ بالرنين قبل أن يتمكن روب من الإجابة. اعتذر منهما وتوجه إلى مكتبه. تجمدت جانسي في مكانها وهي تنظر بثبات نحو فنجان القهوة، وأحست بنظرات دانكن تخترقها.

«قد تضطرين إلى مواجهتي في يوم من الأيام.» قال دانكن بحنق.

«المكالمة لك، يا جانسي.» قال روب وهو يدخل المطبخ: «إنها صديقتك من لندن.»

قفزت جانسي من مكانها وأسرعت إلى غرفة المكتب ثم أحكمت إغلاق الباب وراءها. «فيكي؟»

«ماذا يجري عندك، يا جانسي؟ ومن الذي أجاب على الهاتف؟»

«إنه جاري، متى تستطيعين القدوم؟ أنا بحاجة إليك، فدانكن هنا وليس باستطاعتي معالجة الأمور بمفردي.»

«لماذا لا تعودين إلى لندن إذاً؟»

«لا أستطيع، كما وأنه لن يسمح لي. لقد عاد ليثار، يا فيكي.»

«هل الأمر بهذه الخطورة؟»

«أسوأ من ذلك.»

حسمت فيكي قرارها. «حسناً، لدي موعد هذه الليلة ولكني سألغيه وأسرع بالحضور إليك.»

«آه، يا فيكي، أنت ملاك!»

«ساركب القطار، فانتظريني عند المحطة.»

ناقشتا مسألة الوقت واتفقتا على أن تنتظرها جانسي في يورك في مساء تلك الليلة. «كيف أستطيع أن أشكرك يا فيكي؟» قالت جانسي بارتياح لصديقتها.

www.liilas.com

ضحكت صديقتها. «لن أستطيع الانتظار أكثر لمعرفة ما يجري ويدور، أراكِ قريباً.»

أعادت جانسي سماعة الهاتف بارتياح، وعادت إلى المطبخ. التقت نظراتها بنظرات الرجلين. «إنها فيكي، وستأتي اليوم.»

قال دانكن بسخرية: «استجابت لاستغاثتك؟»

تجاهلته، وتجاهلت ما يرمي إليه، والتفتت إلى روب قائلة: «شكراً للقهوة.»

هز رأسه وهو يقف. «أود إلقاء نظرة على لوحتك.» ومشى الثلاثة نحو الكوخ. ولم تدر، هل تفرح لقدوم روب معهما أم لا. لكنها سعيدة لحمايته لها فهي بحاجة لذلك أكثر من أي وقت مضى. لم تكن ترغب في أن يرى روب رسمها فعيناها كانتا تنطقان بالحب والعاطفة.

وصلوا الكوخ، فتح دانكن باب غرفة الجلوس، وهو يفسح المجال لروب بالدخول أولاً. كان على وشك اللحاق به عندما قالت جانسي: «يجب أن تترك غرفة الضيوف.»

رفع حاجبيه متسائلاً: «أستغرب عدم طلبك مني الرحيل مرة أخرى.»

«وهل ترحل لو طلبت منك؟»

«لا.»

«ما القصد من كلامك إذاً؟»

لم تنتظر الإجابة على سؤالها، بل صعدت إلى الطابق العلوي، غيرت شراشف وأغطية السرير الإضافي، وهي تحاول أن تبتعد بأفكارها عما يدور في الأسفل بين الرجلين اللذين ينظران إلى رسمها بنظرات مختلفة. وعندما

انتهت من عملها، دخلت غرفتها لتصلح من شأنها، بوضع بعض المساحيق فوق وجهها ثم تناولت معطفاً وقبعة من خزانتها.

كان الرجلان ما يزالان في غرفة الجلوس عندما نزلت إليهما. التقت نظراتها بنظرات روب الآسفة، فهي بنظره امرأة نظيفة، فكيف تقف لترسم بهذا الشكل.

سألها دانكن: «إلى أين أنت ذاهبة؟»

«إلى يورك لشراء بعض الحاجيات، وبعد ذلك سأذهب للقاء فيكي في المحطة.»

«سأحضر معطفي إذاً.»

«لا تتعب نفسك، باستطاعتي معالجة الأمر بمفردي.»

ضحك دانكن وقال: «أنت مجنونة إذا كنت تظنين بأني سأفارقك لحظة واحدة، لقد صدقتك بأن فيكي صادمة ولكنك قد تستقلين القطار وتهربين من جديد.»

عضت جانسي على شفتها باستسلام وقالت: «لا ملاذ آخر لي أهرب إليه.»

نظر دانكن إليها للحظات متسائلاً، ثم عبس بقسوة وقال: «بالفعل، أنت تستحقين الشفقة.» قال بسخرية هازئة: «ولكن، لقد بدأت أعرفك جيداً ولن تخدعني أساليبك النسائية التافهة.»

خرج دانكن ليحضر معطفه فسألها روب: «هل ستكونين بخير معه؟»

«نعم على ما أظن، وستكون فيكي عما قريب معي.»

ساعدها روب في ارتداء معطفها ثم قال لها: «لماذا تركته وهربت منه؟»

ترددت للحظة وهي تسمع تحركات دانكن في الطابق

www.liilas.com

العلوي. «لا أريد أن أطلعك... لكني سأفعل في ما لو أصررت على ذلك.»

«هل أطلعت دانكن؟»

«كلا.» هزت جانسي رأسها. «لم أطلعه على الحقيقة، كما أنني لم أطلع أحداً على الاطلاق.»

لمح روب الحزن والأسى العميقين في عينيها. «أنت لست مجبرة على إطلاعي بالأمر، هذا إذا كنت لا ترغبين بذلك.»

جاء دانكن وأقفلت جانسي الكوخ ثم ودعت روب.

قال دانكن: «سنذهب بسيارتي.»

لم تعارض، فهي على أي حال بعد تلك الليلة المتعبة لم تكن لها رغبة بقيادة سيارتها، كما وأن سيارته مريحة أكثر. انطلقت السيارة بهما بسرعة نحو المدينة القديمة. وشعرت جانسي بالنعاس فنامت نوماً مزعجاً وهي تتمتم بعبارات غير مفهومة، واستيقظت بعدها على يد دانكن تهزها بعنف.

«ماذا؟ ماذا هناك؟»

«لقد وصلنا.» قال وهو ينظر إليها بدهشة. «لقد كنت تعانين من كابوس مزعج.»

«آه، هل قلت شيئاً؟» حاولت أن تكون طبيعية.

«لا، لم أفهم منك شيئاً، والواضح أنك تخافين من شيء ما، وكنت تقولين لا، و...»

«وماذا قلت أيضاً؟» نظرت إليه برعب شديد.

نظر إليها متسائلاً باستغراب شديد: «لقد كنت تتفوهين باسمي طوال الوقت.»

لم تستطع جانسي الإجابة، ألهت نفسها بجمع حوائجها

كانت يورك مدينة شاعرية، غنية بمتاحفها وشوارعها القديمة أكثر من أي شيء آخر. اشترت جانسي من أسواقها القليلة، الصابون والمستحضرات التجميلية الأخرى التي تستعملها فيكي ولم تفكر بنفسها. واشترت مرآة جديدة لغرفة الضيوف. كان دانكن يتبعها طوال الوقت، وهي مدركة بما يفكر. فلو لم تهرب منه وتبتعد عنه، لكانا يقومان بتسوق أثاثهما للبيت القديم. عند الساعة الخامسة والنصف، أقفلت المحال التجارية أبوابها، وبقي ساعة من الزمن لوصول فيكي.

اقترح عليها دانكن تناول الطعام، فوجدا مكاناً يقدم الشاي. لم يتكلما كثيراً خلال الوجبة. بل لازما الصمت بينما كان الزبائن الآخرون يثرثرون ضاحكين. أبقت جانسي رأسها منحنياً بعيداً عن نظره، وأحست بالغضب الذي يشتعل في داخله. لكنه قال فجأة: «يبدو أنك لا تأمنين جانبي، وقد لمست هذا عند صباح هذا اليوم، ولن تغير فيكي شيئاً... سأبقى لأحصل على ما أريد مهما كان الأمر طويلاً.»

هزت رأسها قائلة: «ستبقى فيكي قدر حاجتي إليها.»

«لغاية استسلامي للأمر الواقع؟»

«نعم.»

«لن أستسلم، قد تستطيعين الاختباء خلف روب وفيكي، لكني سأبقى منتظراً فتذكري هذا جيداً.»

في الساعة السابعة ذهبا إلى المحطة ومشت جانسي نحو الرصيف بمفردها غير مكترثة له. وبعد لحظات وصل القطار في الموعد المحدد، وخرجت فيكي منه وبدت رائعة بتسريحة شعرها وأناقة ملابسها.

www.liilas.com

«فيكي!» وأسرعت جانسي للقائها، قبلتها قبلة حارة وهي تبكي بفرح. «أنا سعيدة جداً بمجيئك.»

«كذلك أنا، لقد كانت رحلة طويلة.» ثم استدارت لتشكر الرجل الذي يحمل أمتعتها. «شكراً جزيلاً لك، أنت كريم جداً، أرجو أن تنقلها لي نحو السيارة...»

«أنت لست بحاجة إليه. سأحملها بنفسي.» تقدم منهما دانكن. «مرحباً، يا فيكي.»

«دانكن! جميل أن أراك مرة ثانية، لقد قالت جانسي بأنك هنا.»

ابتسم دانكن. «نعم أعرف ذلك.»

حمل أمتعتها ونظرت فيكي إلى جانسي متسائلة وهي لا تفهم شيئاً مما يحصل. هزت جانسي رأسها قائلة: «سأخبرك لاحقاً.»

كان من المستحيل أن تكونا بمفردهما إلى أن وصلوا جميعاً إلى الكوخ، فأسرعت جانسي وصديقتها إلى غرفتها.

«إن المكان دافىء بخلاف ما تصورت، لقد أحضرت معي سترات كثيرة وجوارب صوفية.» جلست فوق سرير جانسي وهي تنظر إلى صديقتها. «أنت تمرين في ظروف قاسية، أليس كذلك؟ كم من الوقت مضى على وجود دانكن في هذا المكان؟»

«منذ البارحة فقط.» أجابت جانسي وهي تحسب وجوده منذ أجيال.

«بما أنه استطاع أن يفعل ما فعله بك في يوم واحد، فمجيئي كان ضرورياً إذاً. والآن أخبريني بكل شيء.»

«كما سبق وقلت لك... لقد وجدني دانكن أخيراً وهو يطالب بالثأر، فمن المستحيل وجوده هنا خاصة وأنا بمفردي.»

«أنا لا ألومه على ثاره هذا، لقد كان مجنوناً بحبه لك. فأنا لم أر اندفاعاً كاندفاعه، خاصة عندما جاء إلى شقتي يفتش عنك.»

«أعرف، ولكني اختبأت عنه وأنا أظن بأنه لن يعثر علي أبداً.»

ونظرت فيكي بتساؤل. «وتبتعدين عن مهنتك؟ لماذا تركته، يا جانسي؟»

«لم يعد الأمر مهماً الآن، لقد قدمت له بعض التفسيرات لكنه لم يقتنع.»

«وما هي؟»

تنهدت جانسي قائلة: «لقد ألفت قصة، وتأملت أن تكون كافية ليبتعد عني، لكنه لم يرحل.»

«لماذا تؤلفين قصة له، ولا تخبرينه بالحقيقة؟» تساءلت فيكي ثم تابعت: «لماذا لم تطلعيني على هذه الحقيقة؟»

كيف تخبر فيكي بالحقيقة وهي متأكدة من أنها ستتأثر كثيراً، ولن يمنعها شيء من اطلاع دانكن عليها. «إذا رحل دانكن، سأخبرك بكل شيء.» قالت واعدة إياها: «لكن الآن لا أستطيع... فقد يجبرك على الكلام. ولغاية الآن يظن بأني هربت مع رجل فرنسي أحببته سابقاً.»

«هل من المفترض أن أعرف هذا الرجل الفرنسي؟»

«قد يساعد هذا الأمر أكثر في ما لو أخبرته بأنك التقيته فعلاً.»

«ما اسمه؟»

حدقت جانسي في وجه صديقتها. «يا إلهي، لقد نسيت ما أسميته، ربما بول.»

www.liilas.com

ضحكت فيكي. «الأفضل لك أن تتذكري. سأحمي ظهرك قدر المستطاع وأبعد ذلك الذئب عن باب غرفتك هذه الليلة. هل وجودي، سيجعله يرحل؟»

«لقد ظننت ذلك، لكنه قال بأنه سيبقى إلى أن يحصل على ما يريد.» قالت جانسي بيأس.

«إذاً، سنجعل له الأمر مملاً لا يطاق، ويرحل قريباً.» قالت فيكي بعزم ثم تابعت: «لا تخافي فلن أتركك معه بمفردك، ولن تسنح له الظروف بالمشاجرة مرة أخرى.»

«شكراً لك، فأنت لا تدرين كم يريحني وجودك معي.»

«هذا من دواعي سروري. والآن سأفرغ حقائبي.» لكنها لاحظت بأن جانسي تحدق بها بيأس. «ماذا هناك؟» وعادت تجلس على السرير.

«هناك أمر آخر أود أن تقومي به، لو فقط تستطيعين.»

«وما هو؟»

أخذت جانسي يد صديقتها تحضنها بقوة. «أريدك أن تحميني من دانكن، ولكن هناك أمر آخر... أريدك أن تعرفيه.»

الفصل السابع

«ماذا؟» ثارت فيكي بتعجب. «تريدين مني أن أغدو...»

«اصمتي، قد يسمعك.» وأسرعت جانسي تغطي فم فيكي براحة يدها. «نعم، ألا ترين معي؟ إنها الطريقة الوحيدة لإبعاده.»

«لكن هذا جنون، إنه يحبك أنتِ، وطالما أنتِ موجودة، فلن يحوّل نظره إلى امرأة أخرى.»

«نعم سيفعل.» أجابت جانسي بثبات. «لأنني موجودة، سيتقرب منك ليثير غيرتي. فهو يريد النيل مني وسيهرع لهذه الفرصة الوحيدة.»

هزت فيكي رأسها. «أنت على خطأ وأظن أنه أكثر إستقامة من ذلك.»

«عموماً، نعم. ولكن ليس في هذه الظروف، لقد عانى كثيراً من الآلام النفسية القاسية، وبالمقابل يريدنني أن أقاسي من الآلام نفسها.»

«هذا تدبير مجنون.» وحدقت بجانسي لفترة طويلة. «ما الذي جرى؟ لقد ظننت بأنكما مغرمان ببعضكما البعض، وبأنكما متفقان، ولا أظن أن في نية دانكن ابعادك عن مهنتك. ولكن ذلك المتوحش. ماذا فعل لك؟»

«لا شيء. والذي أصابني لا علاقة لدانكن به.» ثم تابعت بإلحاح شديد: «صدقيني، يا فيكي، لم يكن دانكن سبب هروبي.»

www.liilas.com

«لم يكن سيئاً معكِ، أو أي شيء من هذا القبيل؟»

«طبعاً لا، إنه مستقيم ومهذب وتكتشفين ذلك بمجرد النظر إليه... هل تقومين بهذا العمل؟ هل تبعدينه عني؟»

لكن فيكي ترددت بعض الشيء ثم قالت: «سأفكر في هذا الأمر، فقط امنحيني بعض الوقت، مع أني أرى الأمر مستحيلاً وأنتِ موجودة هنا.»

ابتسمت جانسي بتعب. «هذا هراء، إنك تستطيعين إغواء أي رجل تريدين، وهذا ما تعلمينه جيداً.»

«كوني حذرة.» أنذرتها فيكي ضاحكة. «والآن يجب أن تساعديني في فك أمتعتي، فإذا لم نخرج بسرعة، سيسيء دانكن الظن بنا.»

«أسرعتا بتوضيب الملابس، وحاولت جانسي جاهدة بأن لا تظهر غيرتها عندما رأت بعض الملابس الفخمة والأنيقة. ولما نزلتا إلى الطابق السفلي، وصلت إلى أنفيهما رائحة الطعام الآتية من المطبخ ورأتا دانكن واقفاً قرب فرن الغاز.

حدق بهما مستهزئاً. «الحمد لله أن حديث القلب إلى القلب قد انتهى أخيراً؟ لقد بدأت أشعر بأني سألتهم هذا الطعام بمفردي.»

«مم... مم العشاء.» وتقدمت فيكي منه: «إنني أتضور جوعاً وهذا الطعام له رائحة شهية، فما هو؟»

«إنه عجل محمر. هيا اجلسا وسوف أقوم بخدمتكما.»

«هل أستطيع مساعدتك؟» سألته فيكي، لكنه كان قد استعد لكل شيء وفتح زجاجة من الشراب، ثم قدم لجانسي طبقاً كبيراً من الطعام فنظرت إليه بتعجب وهي تقول: «لا أستطيع تناول كل هذا.»

لكن دانكن تجاهل ما قالته، ووجه كلامه لفيكي: «ألا ترين معي بأنها هزيلة ونحيفة؟ فهي لا تكاد تأكل شيئاً.»

شعرت جانسي بالإنزعاج ثم قالت: «لقد فقدت شهيتي منذ وصولك إلى هذا المكان.»

أخذت فيكي تنقل نظراتها بينهما ثم قالت: «أنظرا، حاولا أن لا تتشاجرا في أوقات وجبات الطعام، إنه يسبب لي عسراً في الهضم.»

رمقها دانكن بغموض وقال: «آسف، فأنا لا أريد أن تفقدي شهيتك للطعام أيضاً.»

«إنه لذيذ.» قالت فيكي وهي تتلذذ بطعامها: «هل تطهو عادة طعامك؟»

نجحت في جذبه إلى الحديث معها خلال تلك الوجبة. ولكن جانسي لم تشاركهما الحديث مفسحة المجال لهما بالتقرب أكثر من بعضهما بعضاً. وكان دانكن يرمقها من وقت إلى آخر بنظرات خفية، بدا متعباً ضائعاً، إلى أن استطاعت فيكي أن تسترعي انتباهه لها.

عندما انتهوا من طعامهم، كان الوقت قد أصبح متأخراً. صعدت جانسي إلى غرفة فيكي لتضيء مصباحها الجديد بجانب سريرها. لكن دانكن أخذه منها.

«دعيني أقوم بهذا العمل.»

«أنا لست عاجزة... وباستطاعتي فعل هذا.»

لم يصغ إليها بل تابع العمل الذي بدأت فيه بوقت قصير وبدقة متناهية. «هل تريدين القيام بأي شيء آخر؟»

«أنا لا أريد منك شيئاً.» وتركته قائلة: «على أي حال شكراً لك.»

www.liilas.com

«سوف أجمع أغراضي من غرفة الضيوف وأجهز لنفسي سريراً فوق المقعد الطويل في غرفة الجلوس.»

ذهبت جانسي إلى النوم وهي تتصور ليلة أخرى قلقة، لكنها تذكرت وجود فيكي قربها. بما أنها كانت خائرة القوى، استسلمت لنوم عميق، ولأول مرة من دون كوابيس.

كان من عادة جانسي أن لا تسدل ستائر غرفتها لانفراد الكوخ في هذا المكان البعيد، فاستيقظت على أشعة الشمس فوق سريرها. وأصغت إلى صوت الماشية وزقزقة العصافير التي كانت تبني أعشاشها بين الأغصان. إنه الربيع بأجمل معانيه، وثمة بقية حلم يداعب مخيلتها وروحها، لكنها تذكرت بأنه لن يكون هناك أي ربيع مشرق طالما أنها مشوهة، وعليها أن تقاوم تلك المرارة المؤلمة التي نهشت قلبها وروحها. نهضت جانسي من سريرها وأسرعت ترتدي ملابسها خوفاً من أن يراها أحد. دخلت الحمام، وعادت تخلع عنها ملابسها لتستحم. وبعد أن انتهت أسرعت بالنزول إلى المطبخ لتعد طعام الفطور.

كانت أول من استيقظ ذلك الصباح، فأخذت فنجان القهوة، وخرجت إلى الحديقة تستمتع بأشعة الشمس. بعد فترة قصيرة حضر دانكن ووقف أمام باب المطبخ. راقبها للحظات ثم تقدم منها قائلاً: «هل تسمحين لي بالجلوس معكِ؟» وكانت تجلس على مقعد فسيح ولكنها تحركت قليلاً لتفسح له المجال في الجلوس بقربها. وجلس دانكن على يمينها ولمس كتفه كتفها. وكان مرتدياً بنطال الجينز وسترة واسعة فوق قميصه، تنشقت رائحة عطره الذكية، وشعرت بقوته وعظمة رجولته، فارتعشت، ورجعت بها الذكريات المؤلمة إلى أيام

سعادتها معه. أغمضت عينيها وهي تشعر بحنان ودفء الشمس فوقها.

عندما فتحت عينيها، لاحظت أن دانكن لم يرفع نظره عنها. شعرت بأنه فهم ماذا يجري لها. فوقفت مسرعة وهي تقول: «ماذا تريد لطعام الافطار؟»

لكنه أسرع بمسك يدها. «إنك تتمتعين بأشعة الشمس، فلا تذهبي الآن.» وكان صوته هادئاً طيباً... على غير عادته منذ يومين.

قد يكون من السهل ومن الأفضل أن تفعل ما طلبه منها وتجلس بقربه وكأنهما ما زالا عاشقين متيمين. لكنها سحبت يدها من بين يديه الدافئتين وهزت رأسها.

ثار دانكن بحنق. «ماذا فعل بكِ ذاك الرجل؟ ولا تقولي إنه لم يفعل شيئاً، فانفصالكما عن بعضكما البعض لا يجعلك في هذه الحالة الحزينة واليائسة.»

«أنت على خطأ. فأنا بخير.» وأرادت العودة، فرأت فيكي تنظر إليهما من شباك نافذتها. لوحت لها بيدها ففتحت فيكي النافذة.

«صباح الخير، يا له من صباح جميل، سأوافيكما بعد عشر دقائق.»

أسرعت جانسي تهيء طعام الصباح وتأكد لها من أنها لن تبقى بمفردها مع دانكن هذا النهار. فقد حاولت جاهدة أن تبقي فيكي مع دانكن، لكن الخدعة لم تنطل عليه وحاول جاهداً لاحباطها. حاولت فيكي تقديم المساعدة، ولكنه كان أمراً صعباً، خاصة وجودهم في هذا المكان الصغير. في المساء اقترحت عليها جانسي الذهاب إلى الحانة الصغيرة في القرية.

www.liilas.com

«سيرافقنا روب وهو جار لي... وأنا متأكدة من أنه سيعجبك.»

«لا تقولي هذا.» صرخت فيكي. «فأنا وكما تعرفينني لا أعجب بأحد من النظرة الأولى.» وأخذت تضحك ثم قالت: «ولكني سأحاول بناءاً على رغبتك.»

رحّب روب بهذه الفكرة وقد أعجبته فيكي. وعندما وصلوا إلى الحانة، ذهب الرجلان لاحضار بعض المشروب بينما جلست الفتاتان قرب المدفأة الضخمة.

«ماذا جرى لعين روب؟» سألت فيكي بسرعة. «يبدو أن اصابته ليست منذ وقت بعيد.»

«نعم، لقد تشابكا لحظة وصول دانكن إلى هذا المكان.»

«ولماذا؟»

تنهدت جانسي. «لقد ظن روب بأن دانكن يهاجمني، لذلك تعاركا.»

«يا إلهي! لا يبدو على روب أنه من النوع الذي يندفع بسرعة.»

«إنه رجل من يوركشاير، يحتفظ بمظهره الهادىء المخادع إلى أن يثور.»

«حقاً هو كذلك؟» قالت فيكي ضاحكة. «يجب أن أتذكر ذلك دائماً.»

من المستحيل أن تحزن جانسي أو تتألم وفيكي بقربها.

«مهلاً، من المفترض أن تعجبي بدانكن الآن وليس بروب.»

«أنا لم أوافق بعد.» وأخذت تنظر نحو الرجلين: «لا أظن أن لي حظاً من أي واحد منهما... فهما معجبان بكِ.»

بخلاف ما توقعه الجميع، كانت السهرة ممتعة ومسلية. فيما راحت فيكي تخبر قصصها الطريفة، كان روب يضحك

من أعماقه، كذلك دانكن ضحك قليلاً، لكن عينيه كانتا تنتقلان أحياناً إلى جانسي. مفسحاً المجال لفيكي لتكون محور الاهتمام. وعادت الحيوية تدب في جانسي كما كان يعهدها أصدقاؤها. ولاحظ دانكن هذا الأمر وهو الذي يعرفها أكثر من أي شخص آخر، فبدت سعيدة وشع منها حب الحياة والجمال.

كانت الليلة ليلة سبت، وكان عدد رواد الحانة قليلاً. وبعد بضع ساعات، بعد أن شرب الرواد عدداً لا بأس به من المشروب، قفز أحدهم واقفاً يثرثر بمناجاة وبلهجة سكان المنطقة، كلاماً لا يكاد يفهم. كان نوعاً من المجازفة، ومع ذلك جعل بقية الرواد يستغرقون بالضحك. ثم قفز رجل ليغني أغنية فولكلورية شائعة في تلك الناحية أيضاً، وأخذ الباقون يرددون معه الأغنية بصوت عالٍ ظنت جانسي أنه قد يصل إلى سمع سكان الوادي التالي.

كانت الساعة قد أشرفت على منتصف الليل، فتركوا المكان بعد أن أمضوا ليلة ضاحكة ومسلية. كان الجو صافياً يعلن مراراً وتكراراً قدوم فصل الربيع الرائع.

«أود أن أعبر الساقية فوق تلك الحجارة الصغيرة.» قالت فيكي بمرح.

«إننا نسميه جدول ماء.» قال روب وأضاف: «ستقعين لو حاولت القفز بالكعب العالي.»

كان الكعب العالي بطول بوصة تقريباً، أما بالنسبة لفيكي وجانسي فهو لا يكاد يكون كعباً.

ضحكت فيكي. «إذاً، ليقف أحدكما حارساً لخطواتي.» ووجهت نظرها نحو دانكن.

www.liilas.com

«أنت مجنونة إذا ظننت بأني سأساندك في ما لو وقعت.» أجاب دانكن بسرعة.

صاحت فيكي: «كم أنت شهم!»

«سأمشي أمامك.» قال روب، فابتسمت له ابتسامة ساحرة.

وقفت جانسي عند ضفة الجدول مع دانكن، وأخذت تراقب فيكي التي كادت أن تنزلق، فضحكت ثم صفقت لروب الذي التقطها بسرعة. وبعد أن اجتازا الجدول، مشت جانسي نحو الجسر القديم فاعترضها دانكن قائلاً: «إنها المرة الأولى التي أراكِ سعيدة بعد مجيئي.» قال دانكن باختصار.

نظرت إليه وهي تحاول أن تجيبه، وقرأت في عينيه الحزن فقالت: «لم تسنح لي الظروف بأن أضحك.»

«لقد ظننت بأنك نسيت السعادة.»

دهشت لعبارته التي كانت الحقيقة بعينها. فمنذ وقت طويل لم تعرف طعم السعادة. فكرت بأنها أصبحت امرأة عجوزاً مهملة. فاستدارت، وبخطوات سريعة اتجهت نحو الجسر لتلتقي روب بينما تركت فيكي تنتظر دانكن.

«هل تشاركنا طعام الغداء غداً؟» قالت جانسي. فابتسم روب بسرور، لكنه قال: «علي أن أتفقد القطيع غداً فوق التلال.»

«حسناً، ولكن ما رأيك في العشاء؟» وكأن شيئاً جال في مخيلتها. «وقد نأتي معك ونساعدك في تفقد قطعانك.»

«جميعكم؟»

«هل يمكننا؟ إذا رغبا بذلك؟»

«آه... شريطة أن تنتعل تلك الصبية حذاءً ملائماً.»

وصلا إلى بوابة مزرعته، فانتظر روب دانكن وفيكي ليلقي عليهما تحية المساء. بعد ذلك مشى الثلاثة نحو الكوخ.

وحضّرت جانسي لنفسها شراباً ساخناً قبل النوم، تاركة فيكي ودانكن في غرفة الجلوس. لكنها تأخرت في المطبخ فأسرع دانكن لمعرفة ماذا يجري.

«أنا تعبة، وسأشرب شرابي الساخن في فراشي. وهذا شرابك وفيكي.»

كانت تعلم جيداً بأنها لا تستطيع خداعه. «حسناً.» وحمل صينية الشراب واتجه بها نحو غرفة الجلوس.

بعد فترة من الوقت صعدت فيكي إلى الطابق العلوي، وأخذت تطرق باب جانسي. كانت جانسي قد خلعت ملابسها فأسرعت ترتدي ثوباً منزلياً واسعاً وعندما فتحت الباب، قالت فيكي: «لقد صرفني دانكن إلى فراشي مع الشراب الساخن. هل أستطيع محادثتك؟»

«بالتأكيد، وهذا كرسي.» أسرعت إلى فراشها وهي تجذب الغطاء فوقها.

لقد تكلمتا عن سهرتهما وعن روب وهما يتجنبان الموضوع الأساسي. وبعد أن أنهت فيكي شرابها، تثاءبت وقالت: «أنا تعبة، هل هناك أي مشاريع للغد؟»

«سنذهب إلى التلال مع روب لتفقد الماشية.»

«صحيح؟» وبدت فيكي سعيدة. «أظن أن ذلك ممتع.»

أحس الجميع بالمتعة، بينما كان روب يقود سيارة اللاند روفر القديمة في الطرق الوعرة. وبعد ذلك تركوا السيارة وبدأوا عملية البحث عن النعاج بين القطيع. ووجدوا القليل منها حيث أن روب قد دبغها بعلامات ملوّنة. ولم يمضِ بعض الوقت، إلا ووجدها بأسرها. كانت جانسي تلازم روب معظم الوقت، مفسحة المجال أمام فيكي لتنفذ خطتها مع دانكن. لم يمانع

www.liilas.com

دانكن ولم يحاول أن يغير سير الأمور، بل كان وفيكي يتجاذبان أحاديث كثيرة. وعند الظهيرة تناولوا بعض الطعام الخفيف الذي أعده روب. وهم جالسون في بقعة جميلة من الحقل، وبدأ الرجلان بالحديث عن لعبة كرة المضرب وقوانينها. فقالت فيكي لجانسي: «تعالي نذهب لنقطف بعض الأزهار.»

«حسناً، ولكن لم يحن بعد قطاف الأزهار.» لكنها أدركت أن فيكي تريد مكالمتها، فأسرعت وراءها. «ماذا هناك؟» سألتها وهما تبتعدان عن روب ودانكن.

كان في نظرات فيكي انذار واضح. «لقد كنت أتحدث مع دانكن هذا الصباح، أو لنقل كان يدفعني إلى الكلام عن صديقك. لكني قلت له ما اتفقنا على قوله، وقد بدا لي وكأنه اقتنع. لكن اسم الصديق الذي أعطيتني إياه كان خطأ، فركز عليه في الحال، إلى أن قلت له بأني نسيت.» وتوقفت لتلتقط بعض الأعشاب البرية وأخذت تداعبها بيدها. «والذي يدهشني... كيف استطاع التعرف إلى مكانك.»

«لقد وظّف تحرياً خاصاً ليدق باب كل فرد من بوركشاير ويسأل عن الأشخاص الذين يدعون بروس إلى أن وجدني.» وتوقفت للحظات ثم تابعت: «ثم حضر بنفسه لينهي هذه المسألة.»

«يا إلهي!» قالت فيكي باستغراب شديد. «لكنني أقول لكِ وعلى الرغم من محاولات الثأر... فهو ما زال يريدك وبقوة... إنه ما زال يحبك، ومهما فعلت وسببت له من آلام، فهو مستعد لمسامحتك والبدء من جديد.»

«لكني لم ألمس منه ذلك.» قالت جانسي وهي تتذكر ثورته الجامحة.

«ربما، لكنك لا تستطيعين لوم رجل هجرته حبيبته دون سبب مقنع. وربما يحتاج إلى معاقبتك بأي طريقة ليداوي جراحه.» ثم تابعت بعياء: «لست أدري، فأنا لست بطبيبة نفسانية، لكن أقول لكِ بأن نفسية دانكن ليست رديئة. في الوقت الحاضر، إنه يتمزق من الغضب لتصرفك الغريب وما زال على حبه لكِ ولا يستطيع تحمل بعدك عنه. لماذا لا تتحدثين معه، وتقولين له الحقيقة؟ مهما كانت عظيمة، فأنا متأكدة تماماً بأنه سيقدر مواقفك.»

ابتسمت جانسي وهي تلمس يد فيكي. «أنت محامية رائعة، يا فيكي، لكن وللأسف لا أستطيع القيام بما أشرت عليه.» ثم تابعت مشيها فلحقت فيكي بها.

«انتظري.» أوقفتها فيكي بتوسل. «إننا صديقتان، أليس كذلك؟ فأنا أعرفك تمام المعرفة. فلولا حبك العميق لدانكن ما وافقت على مشروع الخطوبة بينكما. كما أنك ما وافقت على الزواج منه لو كان هناك رجل آخر في حياتك بالفعل. وأنا متأكدة من أنك ما زلت مغرمة بدانكن.» توقفت لتعطي جانسي مجالاً للكلام، لكن صديقتها تابعت مشيها بحزن دفين. «لماذا كل هذا الغموض، يا جانسي؟» وأمسكت ذراع صديقتها وجذبتها نحوها. «لماذا خرجت من حياته على هذه الصورة؟»

بعد تردد طويل، قالت جانسي: «لقد حلّ بي أمر، ولا أستطيع مكالمته بشأنه.»

«حاولي، امنحيه فرصة أخرى.»

«لا أستطيع.» وهزت رأسها بانهيار تام. «أرجوكِ لا تحاولي معي مرة ثانية.»

www.liilas.com

«أنا مضطرة لذلك، فأنا لا أحتمل رؤيتك بهذا الحزن، كذلك دانكن. لماذا لا تستطيعين مكالمته؟»

تنهدت جانسي بعمق وقالت: «لو لم يكن فناناً، لكنت صرّحت عما في قلبي... لكنه فنان يعشق الجمال والصفاء.»

دهشت فيكي ثم قالت: «يعشق؟ ألا تبالغين في القول؟»

«لا. بينما كنا نتناقش حول مكان شهر العسل، قال دانكن، لنذهب إلى فلورنسا... هيا إلى عشق جمالها الساحر. فقلت له إن الجمال شيء سطحي لا يستحق كل هذا التقييم وكل هذا العشق. لكنه قال لي، الجمال يستحق عشقه وتقديره، لأنه مسيرة الحياة. إن الجمال أعظم بكثير من الحب نفسه، مع العلم أن في الحب جمالاً، فالعين ترى جمال المحب وبرغم كل ذلك يبقى الحب مجرد ذكريات لا تمحى. لهذا السبب لا أستطيع اطلاعه على شيء.» وعضت على شفتها بالم وهي تحاول أن تجد الكلمات المناسبة. «لقد... دنّست.»

حدقت فيكي بصديقتها. «هل أعتدى عليك أحد؟»

نظرت جانسي إلى صديقتها بأسى وقالت: «لا، ليس بالمعنى الذي تتصورينه لكنني لست المرأة نفسها التي وقع دانكن في حبها. صدقيني، يا فيكي، فلو عرف، سيعرض عني حتماً. ومن الأفضل أن أكذب عليه ولا أخبره بالحقيقة الدامية المؤلمة.»

احتارت فيكي في أمر صديقتها لكنها قالت: «ألا تطلعينني على الذي جرى لكِ؟»

«لا، لأنك ستأسفين علي، كما لن يكون باستطاعتك اخفاؤه عن دانكن، ولكن بعدما يرحل سأخبرك بكل شيء.» وأطرقت بحزن. «يجب أن أخرج من آلامي.»

عادت جانسي وفيكي لتنضما إلى الرجلين، ولما اقتربتا منهما، وقف دانكن بسرعة محاولاً قراءة وجهيهما. لكنهما تجنبتا نظراته وانشغلتا بتوضيب أغراض النزهة.

في المساء جاء روب للعشاء، وأخذ يطلب من جانسي أن يعطيها دروساً في العزف على البيانو الذي يعود لعمتها. ثم جلسا معاً على مقعد البيانو وحاولت التركيز على الدروس، لكن ذهنها كان مشدوداً إلى دانكن وفيكي اللذين جلسا على الكنبة يتكلمان بصوت منخفض، وكانت فيكي بين فترة وأخرى تضحك بمرح. إنها تداعب دانكن، هذا ما فكرت به جانسي، فاشتعلت غيرة ثم أخطأت في ضرب علامة موسيقية. «آسفة.»

«لا بأس عليك، حاولي مرة أخرى.» قال روب مشجعاً.

نظرت جانسي نحو كتاب الموسيقى وقالت: «ماذا تعني تلك العلامة الموسيقية؟»

أمضت جانسي سهرة لا بأس بها، وفي صباح اليوم التالي استيقظت باكراً وذهبت في رحلة على قدميها نحو التلال، تاركة فيكي ودانكن معاً، شاء ذلك دانكن أم أبى. وعندما عادت من رحلتها، سمعت أصوات تقطيع الحطب. فاتجهت نحو الباحة الخلفية، فوجدت دانكن قد ثنى كمي قميصه وأخذ يقطع جذع الشجرة الكبير إلى أحجام متساوية. إنه العمل الذي يقوم به روب دائماً.

لم يلاحظ وجودها في البداية، كان يصب اهتمامه على تقطيع الحطب بدقة متناهية، وكأنه كان يطفىء نيران غضبه بهذا العمل. ولما شعر بوجودها، توقف برهة من الوقت والفأس معلق في الهواء، لكنه أسقطه بشدة نحو الجذع فعلق

www.liilas.com

به، وتقدم منها بخطوات واسعة وجذبها نحوه بخشونة وعانقتها.

أحست جانسي بالضعف أمام رجولته القوية، ولم تستطع مقاومته لكنها تذكرت حقيقتها المرة فجاهدت لتتخلص من قبضته. لم تقل له لا تلمسني كعادتها، بل نظراتها له قالت كل شيء. لكنه فهم، وأخذ يمسح فمه بيده، وكأنه يزيل أثرها، وقال: «أين كنت؟ لقد قلقت فيكي عليك.»

«قمت بنزهة نحو التلال.»

جاء صوته القاسي. «لا تحاولي خداعي، لقد فهمت لعبتك الخبيثة بدفعي نحو فيكي.»

«نعم، لقد طلبت منها أن تبعدك عن كاهلي.» قالت بقسوة لا تقصدها على الاطلاق. «لقد أردت تخفيف الوضع القاسي عليك، وتقربك من فيكي قد يجعلك تنسى حبي وتتجه نحو أمل وحب جديدين. والذي كان بيننا ليس بالأمر المهم.»

«هذا بالنسبة لكِ؟»

«نعم.» وأبعدت وجهها عنه.

جن جنون دانكن وأخذ يحاول تهدئة نفسه المضطربة. «لكن، هناك أموراً كثيرة لم تشرحيها بعد.»

«وهل تهمك هذه الأمور؟»

«نعم، تهمني!» وعاد إلى نبرته الحادة. «فأنا لست مستعداً لأن أمضي بقية حياتي متسائلاً عن سبب هجرك لي...»

«لقد قلت لك السبب.»

«لقد قلت إن هناك رجلاً آخر، الرجل الفرنسي. ماذا كان اسمه؟»

قالت بجزع شديد: «الاسم ما عاد يهم.»

برقت عينا دانكن وقال بحدة: «لماذا غيرت اسلوب حياتك؟ لماذا انقطعت عن الجميع بهذا الشكل؟ هل الخجل كان وراء تصرفك الغريب؟»

«الخجل؟»

«بسبب كونك هزئتِ من ذلك الرجل.»

استدركت جانسي بأن عليها أن تنقذ كبرياءها المداسة. «أنا لست خجلة من علاقتي به... كما أني لم أهزأ. والأشهر القليلة التي قضيتها معه كانت تستحق أن أتخلى عن كل ارتباطاتي. لكنني طعنت... عندما فهمت منه بأني لن أكون له إلى الأبد.»

«إذاً، لست أنا السبب الرئيسي؟»

«لقد قلت لك هذا مراراً.» لقد كانت تكذب، وأحست بخفقان شديد في قلبها.

«نعم، والحق معك.» وجاء صوته بارداً كالثلج.

أملت أن يذهب أخيراً فقالت: «وجودك هنا كان مدعاة للقلق.»

نظرت جانسي إلى وجه دانكن المضطرب، بقلب يقطر ألماً، وهي عاجزة عن تقديم أي مساعدة له. لكنه قال بجهد وصوته مخنوق: «على العموم، سأبقى وكما سميتني مدعاة للقلق، إلى أن أرتاح وتهدأ نفسي المضطربة وبعد ذلك سأرحل.» ودار متجهاً بخطى واسعة إلى داخل الكوخ.

لم يستطع دانكن أن يكلم جانسي خلال النهار، وكان من الطبيعي أن يلتفت نحو فيكي التي اغتنمت هذه الفرصة بعد أن تبادلت النظرات مع جانسي. وبالطبع، أدرك دانكن كل ما يدور، فأخذ يداعب فيكي ويتعمد إثارة جانسي، وقد نجح في ذلك وهي تراه يلف وسط فيكي بذراعه، وتسمعه يمازحها ويوجه

www.liilas.com
المحروسة من الانترنت

كل اهتمامه لها. فتألمت جانسي بصمت قاتل. وفكرت بأن تتجاهلهما وتخرج من الغرفة، لكنها عادت وعدلت عن فكرتها هذه وهي تتخيلهما بوضع آخر.

في مساء الليلة التالية، اقترحت فيكي على دانكن، أن يكمل صورة جانسي.

«لا أظنها توافق.» قال دانكن وهو يداعب خصلات شعر فيكي الأشقر.

«لا أظنها ترفض، أليس كذلك، يا جانسي؟»

ظنت جانسي بأن موافقتها على هذا الطلب، ستوقف دانكن عن مداعبة شعر فيكي، فوافقت على الفور. كان دانكن يصب نظراته على جانسي بحب وشوق، عندما بدأ بالرسم، فتمنت لو أنها لم توافق. لم يكن هناك الكثير، الشعر وبعض اللمسات الأخيرة في أماكن أخرى من اللوحة. عمل بصمت وهو يضع الألوان المناسبة. وعادت الذكريات تلهب جانسي، عندما كانت تقف امامه في المحترف، وشعرت بأن دانكن يتذكرها أيضاً. وحاولت أن تبعد عنها تلك الذكريات، فلم تستطع، لأنها طغت على روحها وعلى أحاسيسها. حاول دانكن أيضاً ابعاد هذه الذكريات، لكن كيف، وقد أصبحت جزءاً لا يتجزأ منه.

ابتعد دانكن إلى الوراء قليلاً وأخذ يدقق النظر في اللوحة. «انتهيت، وأصبحت جاهزة وكاملة.»

«إنها عظيمة!» قالت فيكي وهي تمعن النظر في اللوحة. «تعالي وألقي نظرة عليها، يا جانسي.»

تقدمت جانسي ببطء وأخذت تنظر إليها. لقد كانت مختلفة، وللحظات لم تستطع التحقق من هذا الاختلاف الذي شعرت به. لكنها، تدريجياً، لاحظت أن دانكن غيّر في بعض ملامح وجهها.

فبعد أن كانت عيناها تشعان بالحب والحنان، خبتا وأحاط بهما السواد والحزن، واختفى اشعاع الحياة من وجهها. لقد أراد دانكن القول إن الجمال غاب عن حبيبته ولم تعد لديه تلك المرأة المحبة.

أصبح الوقت متأخراً، فصعدت جانسي إلى غرفتها سعياً للنوم. كان قلبها مثقلاً باليأس والحزن. وتناهى إلى سمعها دقات ساعة الحائط تعلن الواحدة من بعد منتصف الليل، ثم سمعت باب غرفة فيكي يفتح ثم يغلق. فظنت أن صديقتها تود الدخول إلى الحمام، ولكن خطواتها اتجهت نحو السلم، وبعد قليل سمعت جانسي باب غرفة الجلوس حيث ينام دانكن يفتح ثم يغلق بهدوء.

ألم تكن هذه إرادتها والتي غضت النظر عنها. من المفترض أن تكون سعيدة راضية الآن؟ لكن لم يغمض لها جفن وهي تتقلب على نيران الحزن والغيرة. بعد مضي حوالى الساعتين، سمعت خطوات فيكي العائدة إلى غرفتها.

لم تطلب تفسيراً في اليوم التالي. تأخرت فيكي في نومها ولم يخرج دانكن من غرفة الجلوس قبل الساعة العاشرة. انشغلت جانسي بإعداد الخبز، ثم اتجهت نحو القرية لشراء بعض الحاجيات للكوخ. وفي طريق عودتها، دعت روب لتمضية السهرة معهم في الكوخ. وأخذت جانسي تقاوم انفعالاتها في هذا اليوم، وهي تظهر عدم الاهتمام، برغم جراحها وآلامها. وتجنبت النظر إليهما كي لا يكتشفا ما تعانيه من تعب وقلق.

كان الأمر أسهل عندما جاء روب في المساء. وكان مرحاً وهو يقص على مسامعهم النوادر والطرائف على طريقته

www.liilas.com

القروية. لقد جلسوا إلى الطاولة يثرثرون بمرح وانسجام.

أخذت الأمور تجري فجأة بخلاف ما بدأت، وبطريقة لم تتوقعها جانسي المكتنفة بالأحزان. فقد قال دانكن: «قالت جانسي بأنك تهتم بالسيارات القديمة.»

أجابه روب: «لقد سمحت لي بأخذ سيارة عمتها القديمة، ومنذ تشرين الأول (اكتوبر) وأنا أعمل لها في المقابل.»

لم يشعر أحد بانتفاضة دانكن وهو يقول: «تشرين الأول؟»

«نعم، الشهر الذي جاءت جانسي فيه.» أجاب روب بصدق. «نعم، لقد كنت في ما مضى أعتني بسيارة العمة. ولكن عندما وصلت جانسي، طلبت شراءها منها...»

«هل جاءت بمفردها؟»

«نعم... لقد كانت دائماً بمفردها... إنها...» توقف روب عن الكلام متعجباً من الصمت الرهيب الذي خيم على المكان. ووجد أن عيون الثلاثة مسلطة عليه... فيكي مندهشة، جانسي تهتز برعب، ودانكن يشتعل غضباً. «ماذا جرى؟ ماذا قلت بـ...؟»

قام دانكن نحو جانسي يشد ذراعها، ليوقفها على قدميها. «إذاً ما من رجل! ما من رجل فرنسي لتتذكري اسمه. لقد كان الأمر كذبة كبيرة. لقد جئت رأساً إلى هذا المكان من لندن. وهذا يعني، أنني أنا سبب هروبك. أنا!»

«أرجوك، يا دانكن.» قفزت فيكي وحاولت تهدئة جنون دانكن، لكنه أبعدها عنه بقسوة.

أخذ يهز جانسي بعنف، وهو ينظر إلى ملامح وجهها المضطرب. «هل تسمعينني، عليكِ أن تخبريني بالحقيقة كاملة. أريد معرفة السبب. ماذا فعلت بك لتهربي مني؟ ما هو الأمر الفظيع الذي دفعك لكتابة تلك الرسالة الرهيبة؟ لتأليف

أكاذيب خبيثة... لماذا أيتها المتسلطة اللئيمة، ما الذي فعلته حتى تتنكري لي؟»

«اتركها!» حاولت فيكي دفعه عن جانسي، بينما بقي روب بعيداً بذهول تام من الذي سببه دون أن يدري.

لم يكترث دانكن لنداء فيكي، بل أخذ يدفع جانسي وهو ما زال على هياجه المخيف. «يجب أن تخبريني! يجب أن تخبريني بكامل القصة. هل السبب أنني أحببتك حباً فوق العادة؟ هل حبي الكبير لكِ جعلك تكرهينني؟»

«لا!» صرخت جانسي وكانها استفاقت من كابوس مزعج. وتخلصت من قبضته القوية، وتراجعت بضع خطوات. «الأمر لا يتعلق بك، إنه يتعلق بي!» وتساقطت الدموع على خديها بالم. «يا إلهي، لماذا لا تبقَ بعيداً؟ لماذا لا تحاول أن تكرهني؟» وحاول أن يتقدم منها لكنها تراجعت أكثر إلى الوراء، وهي تهتز بعنف من شدة تأثرها. «حسناً! تريد الحقيقة... وسأريك الحقيقة!»

أسرعت بخطى متعثرة نحو غرفة الجلوس حيث كان رسمها على منصة الرسم وكانت أدوات دانكن ما زالت مكانها. وبيد مرتعشة عثرت على مشحف طويل وحاد، بين تلك الأدوات.

«لا، يا جانسي!»

جاء صوت فيكي الخائف من ورائها، لكن جانسي أخذت تقطع وتقطع جزءاً من الرسم إلى أن اختفى الثدي الأيسر نهائياً وتناثر قطعاً على الأرض.

mumtalilas.com

الفصل الثامن

كانت فيكي أول من استدرك هذه الحقيقة المؤلمة. «يا إلهي! لا... لا!» ثم سقطت على المقعد، وهي ترتجف من هول الكارثة.

كان محور اهتمام دانكن، الرسم وكيف تم تشويهه بهذه البساطة. «لماذا فعلت هذا بحق السماء؟ ماذا بك هل جننت؟ لماذا؟»

«ألم تفهم؟ هل عليّ أن أعلنها لك؟ حسناً، فانظر إذاً!» وأخذت جانسي تخلع عنها سترتها الواسعة، وهي في حالة بكاء شديد. «ما عليك، يا روب، لا تبعد وجهك، فليس هناك شيء لتراه... لا شيء!» وصرخت صرخة أدمت القلوب وهي ترمي الثدي المستعار، وبان الجرح ولا شيء آخر.

تجمّد روب بسكون عميق، لكن دانكن قال: «يا إلهي!» وهزّ صوته المكان وهو يتراجع بارتجاف شديد. كانت عيناه مركزتين على صدرها، وعلى آثار الجرح، لكنه لم يحتمل أكثر فغطى عينيه بقبضته والألم يعتصره ويهز كيانه.

تشجنت أعضاء جانسي وهي ترى ردة فعل دانكن وأخذت تحاول تمالك أعصابها المضطربة. أسرعت فجأة نحو دانكن وأخذت تضرب صدره بعنف. «أخرج من هنا! هيا أخرج! أخرج!»

لم يمانع لهول ما رآه وسمعه، كما أنه لم يقاوم ضرباتها وهي تدفعه خارج الغرفة ومن ثم خارج الباب الأمامي وهي تتعثر فوق الدرجات القليلة. ثم عادت إلى فيكي، فوجدتها على

حالها من الذهول التام على المقعد، تبكي بألم. «أبعديه من هنا، يا فيكي، أرجوك ساعديني في إبعاده عن هذا المكان.»

«آه يا عزيزتي، آه يا جانسي، كم أنا حزينة من أجلك.»

«أعرف، أعرف مشاعرك تجاهي يا صديقتي... هيا، يا فيكي، وتوقفي عن البكاء. يجب أن ترافقي دانكن إلى منزله.»

«لكني لا أستطيع. لا أستطيع تركك هكذا.»

«نعم باستطاعتك. لقد تعودت على هذا الحال. أما دانكن، فهو الذي بحاجة إلينا الآن.» وأخذت تدفع فيكي خارج الغرفة. «هذا معطفك، ارتديه حالاً وهذه حقيبتك، هيا أسرعي.»

«وماذا عن أمتعتي؟»

«سوف أبعثها إليك قريباً، هذا معطف دانكن، باستطاعتك قيادة سيارته، أليس كذلك؟»

«نعم، نعم، أظن ذلك... لكن لن أستطيع تركك هكذا.»

«نعم باستطاعتك.» وقبلتها جانسي ثم قالت لها: «اعتني بدانكن من أجلي، ساعديه كي يتخطى هذا الأمر البشع.»

خرجتا إلى الباحة الخارجية حيث وجدتا دانكن في حالة من الصدمة الشديدة، جالساً فوق مقعد خشبي. كانت أعصابه مشدودة ولم يمانع عندما سحبته جانسي لتجلسه في سيارته. فأخذ ينظر حوله وهو في حالة حذر شديد وقال: «جانسي؟ ماذا؟»

لكن جانسي أقفلت باب السيارة بعنف وصرخت بفيكي: «هيا، هيا، أبعديه عن هذا المكان.»

تقدمت فيكي بالسيارة وهي تشهق بألم شديد ثم اختفت عن الأنظار، وهي في حالة بكاء وألم نفسي عنيف.

كانت جانسي تراقبهما وهما يبتعدان. كانت ترتجف من

www.liilas.com

عوامل كثيرة؛ عوامل اليأس والحزن، عوامل حبها الضائع الذي علقت عليه الآمال الكثيرة، لقد ذهب الآن ولن يعود، وستمضي بقية عمرها في هذا الظلام الدامس الذي كتبته لها الأقدار. التفتت إلى الوراء لتجد روب واقفاً يتأملها بألم، ثم فتح لها ذراعيه، فأسرعت إليه لترتمي على صدره وتضع رأسها على كتفه. دخل وإياها إلى المطبخ حيث الدفء والسكون.

حضنها كطفلة صغيرة، وهو يداعب خصلات شعرها. «يا ابنتي البائسة.»

كانت جانسي قد توقفت عن البكاء، لكن ارتجافها الشديد لم يتوقف قبل فترة طويلة. فجلست على المقعد، وأبعدت خصلات شعرها عن وجهها. «حمداً لله، إنني بخير الآن، ولن أبكي بعد الآن، لقد جفت دموعي.»

«هل تريدين بعض الشراب؟»

«لا.» قالت وهي تهز رأسها بعجز.

ثم دخلت غرفة الجلوس، كانت الكؤوس وفناجين القهوة ما زالت فوق الطاولة، وأخذت تنظر حولها غير مصدقة بأن الأمور قد تغيرت بهذه السرعة. ثم عمدت إلى ترتيب المكان بأعصاب باردة.

«لماذا لم تخبريني؟» سألها روب من ورائها.

هزّت كتفيها وقالت: «أنا لا أريد شفقة.»

«لكنك، وفي هذه الحالة، بحاجة إلى شخص تكلمينه، لم تخبري أحداً؟ حتى ولا فيكي؟»

«لا، إنها مشكلتي... ويجب أن أواجهها بمفردي.»

«إذن، أنت حمقاء صغيرة.» قال بقسوة. «وأخطأت بعدم إعلام دانكن، كان يجب أن تمنحيه فرصة...»

«ألم تر عينيه؟» قاطعته جانسي بحدة. «عندما رأى... عندما نظر إلي، ثار لما وقع نظره عليه. كنت أعرف كل ذلك، ولهذا كنت أتجنبه طوال الوقت، فهربت وجئت إلى هذا المكان، لأتجنب تلك النظرة من عينيه.»

«يا فتاتي، يا جانسي.» واقترب روب منها ليضع يده على كتفها، كانت شفقته عظيمة عليها فاحتار في ما يقول لها.

«الحال أفضل الآن. وأحمد الله على أن الأمور انتهت. وانني سعيدة لذهابهما.» وتوقفت وهي تبتسم لروب. «شكراً لك، يا روب، شكراً لتعاونك معي، وإني أقدر لك ذلك تمام التقدير. ولكني الآن تعبة وأطلب منك الذهاب.»

«من المستحيل أن أتركك بمفردك.»

«لا، بل عليك بالذهاب. وقد تكثر أقاويل الجيران.» وحاولت جانسي أن تضحك وتابعت: «حقاً، سأكون بخير. وبما أنهما قد رحلا، فقد أستطيع النوم بسهولة.»

حاول روب معها مرة أخرى، لكنها كانت صارمة وجادة. فقال بعطف: «عديني بأن لا تؤذي نفسك.»

«لك وعد صادق مني.»

استسلم للأمر الواقع وهو ما زال غير مقتنع، ولكنه ذهب فلوحت بيدها مودعة من الباب الأمامي، وأقفلت الباب بإحكام. وبدلاً من أن تخلع ثيابها استعداداً للنوم، ارتدت سروالاً سميكاً، وانتعلت حذاءً قاسياً ومن ثم معطفاً ثقيلاً. كانت متأكدة من أن روب يراقبها، فخرجت من الباب الخلفي وقطعت الحديقة الصغيرة ثم قفزت فوق السور نحو التلال.

كانت ليلة مقمرة أضاءت لها طريقها بوضوح، وعكس ضوء القمر ظلها على الأرض. بدت التلال مختلفة، وغامضة في

www.liilas.com المزيد من الكتب

الليل كما أن رائحة الأعشاب كانت أقوى. كانت تسمع الأصوات الخفيفة تصدر عن طائر الليل أو عن بعض الخراف التائهة. تابعت جانسي مسيرتها إلى أن ابتعدت كثيراً، فوقفت وهي تتلفت في جميع الاتجاهات وتخيلت أن هذا المكان لم يتبدل منذ مئات السنين، وربما منذ عهد الإنسان الأول. التلال والنجوم لم تتبدل أبداً.

جلست على صخرة صغيرة وفكرت كم هي وضيعة مع متاعبها أمام الزمن والفضاء اللذين هما من إبداع الخالق. والغريب أن تلك الأفكار كانت مريحة لها. فحياتها تمتد أمامها مثل طريق مهجور، أو ربما طريق طويل، وقد تكون طريق قصيرة جداً. ولكنها لم تندب ذلك. وكما قالت لروب، لقد جفت الدموع. وكانت سعيدة لمعرفة دانكن بالحقيقة ورحيله عنها. ربما قد يتفق مع فيكي. وللحظة شعرت بألم عندما وصلت بأفكارها إلى هذا الحد، ولكن حبها الشديد له دفعها للتفرح من أجله وهي لا تنشد سوى سعادته.

حاولت أن تفكر بجدية في مستقبلها، لكن أفكارها كانت تشدها نحو الماضي. خاصة تلك اللحظات الرهيبة، حيث رأت مدى قبحها في عيني دانكن... وتألمت وتذكرت كلمات روب، حين قال لها بأنها لم تمنح دانكن أي فرصة. ربما كانت غير عادلة في قرارها بعدم إطلاعه على الحقيقة ولكن دانكن رجل نزيه وقد يسارع إلى الزواج منها. مع ذلك هل سيكون دافعه الشفقة أكثر من الحب؟ هل ستستطيع أن تحجب عينيه عن النظر إلى صدرها، هل سيبقى مقتنعاً بأنه ما زال على ذلك الحب الذي جمعهما؟ لقد كانت مجازفة كبرى لا تستطيع جانسي احتمالها أو تخطيها.

شعرت بالقشعريرة الباردة بسبب الرطوبة التي تعمّ الجو. وأخذت تفرك يديها لتشعر ببعض الدفء. كان من الصعوبة التحرك وسط الضباب، ولكنها كثيراً ما مشت فوق هذه الأماكن المألوفة لديها، وإذا ضلت الطريق، فما عليها سوى الانحدار فوق تلك التلال إلى أن تصل إلى الجدول.

بينما كانت في منتصف طريق العودة، شاهدت أنواراً تصدر من الكوخ. قد يكون روب قلقاً عليها وعاد ولم يجدها. وتمنت أن لا يكون قد أوعز إلى أهالي القرية بالتفتيش عنها. أخذت تسرع الخطى وصدى خطواتها فوق الصخور يتردد في سكون تلك الليلة. «جانسي؟» وسمعت أحداً يناديها ومن ثم وقع خطوات سريعة. ظهرت صورة رجل في هذا الظلام الدامس مسرعاً نحوها، لم يكن ذلك روب، بل كان دانكن.

تجمدت في مكانها، مفسحة المجال له بالوصول إليها. ومن ثم وقف متردداً ماخوذاً للحظات، وكأنه لم يعد باستطاعته الاحتمال أكثر، فأسرع وضمها إلى صدره.

ولدقائق طويلة لم يتفوها بأي كلمة إلى أن قالت جانسي وهي في حالة من الانهيار التام: «لماذا عدت؟ يا إلهي، لماذا عدت؟»

أخذت يده ترتجف وهو يداعب شعرها. «هل ظننت فعلاً بأني لا أريدك، فمهما جرى لك، أنا أحبك، يا جانسي. ما من أحد يستطيع تغيير ذلك.»

رجعا إلى الكوخ، ومن ثم إلى غرفة الجلوس. لم يكن رسمها موجوداً والقطع الصغيرة التي تناثرت، التقطت وأبعدت عن المكان.

«تعالي قرب المدفأة.» وسحب لها كرسياً وأخذ يضيف

www.liilas.com

مزيداً من الحطب للنار. «يجب أن أخبر فيكي بأنك بخير. لن أتأخر أكثر من بضع دقائق.»

«أين هي؟»

«إنها عند روب، إنه يبحث عنك أيضاً، ولكن فيكي ستخبره بأنك في أمان الآن.»

«لقد وعدته بأن لا أقوم بعمل مجنون.»

«أعرف، ولكننا كنا في غاية القلق عليك.»

أخذ يداعب وجهها بحنان. «لن أتأخر عليك.»

«حسناً.» وعندما حاول الخروج قالت له: «دانكن... عد بمفردك.»

ابتسم لها بحنان دافىء. «طبعاً.»

عاد بعد وقت قصير وأغلق الباب وكأنه يغلقه في وجه العالم بأسره. خلع معطفه ودخل غرفة الجلوس.

«ألم يعد روب بعد؟»

«لقد أطلقت فيكي بوق السيارة، فسيسمعه ويعود لتوه.» وجلس بجانبها ممسكاً بيدها.

«آسفة، لقد سببت لكم ازعاجاً من دون قصد. أردت الوحدة في سكون الليل.» ورمقته بنظرات تشع بالحنان ثم قالت: «كان عليك أن لا تعود، كان عليك أن ترحل مع فيكي.»

هزّ رأسه قائلاً: «من غير الممكن، كنت كمن يستيقظ من كابوس مزعج... عرفت أني في السيارة ومبتعداً عنك وعن كل الذي مررت وعانيت منه...» عاد يهز رأسه وكأنه يؤنب نفسه. «وعندما انتبهت للذي أقوم به، أجبرت فيكي على الوقوف، لكنها مانعت في البداية، متعذرة بأنك الآن منفعلة، وفي غاية التأثر، ويجب أن أمنحك بعض الوقت لتهدئة روعك. وتشاجرنا

بعض الشيء، إلى أن سحبتها عن مقود السيارة لأتسلمه بنفسي.»

ابتسمت له جانسي بحنان: «أنت تشبه رجل الكهف.»

ابتسم دانكن لابتسامتها. «نعم، هيا انهي مشروبك.» وأطاعته ثم أحاطها بذراعه. «كان علي أن لا أسمح لك بدفعي خارج الكوخ.» قال لها بحزن: «لكنها كانت صدمة قوية وغير منتظرة وتساءلت كيف تلقيت أنت هذه الصدمة المخيفة؟»

«لقد كنت في حالة تفتت مريعة.»

«كنت اتصور كل شيء مرعباً، لكن أبداً لم يخطر ذلك على بالي.»

تنهدت بألم: «وأخفيت عنك الحقيقة.»

«لكن لماذا؟ لماذا لم تطلعيني عليها؟»

استوت جانسي في مقعدها قائلة: «أنت فنان وتحب الجمال، وطالما أعجبت بجسدي ولكن الآن...» وتكسرت الكلمات على شفتيها: «كيف تراه الآن؟ هل ما زال جميلاً؟ أعلم جيداً أني لست جميلة الآن، أنا بشعة وأنت تكره البشاعة.»

انتظرت جانسي ردة فعل كلامها عليه، فرأته يهتز غضباً وجذبها بقوة نحوه. «ألا تؤمنين بجدية حبي لك؟ لو قدر وحدث لي شيء مماثل، هل أخرج من حياتك بهذه البساطة؟»

«لا، طبعاً... ولكن...»

«ولماذا إذاً تعتقدين بأن حبي لك أقل عمقاً من حبك إلي؟ الذي حدث لك شيء فظيع يا جانسي، ولكن لا يحق لك أبداً اخفاؤه عني. الحب الذي بيننا خالد مهما تقلبت الظروف. وهروبك جعل من هذا الحب المقدس وكأنه لا شيء، ولا يوازي أي شيء...»

www.liilas.com

«لا.» قاطعته جانسي بحدة. «لقد راقبت وجهك عندما نظرت إلي. لقد غطيت وجهك بقبضتك...»

«لقد صعقت ولم أستطع تصور الشيء الرهيب الذي ألمّ بك.» قاطعها دانكن بقسوة. «وتساءلت كيف مررت بهذه المرحلة المخيفة، وحدك ومن دون وجودي بقربك.» ووقف ليواجهها وجهاً لوجه. «حسناً، أنا لا أنكر أنني قد أحتاج لبعض الوقت لأعتاد على الأمر، وهذا طبيعي لأي رجل، قد يجد أن أمراً مريعاً ألمّ بحبيبته الغالية.»

وافقت جانسي على الفور. «نعم، إنه أمر من المستحيل التغاضي عنه.» ورأت ملامحه الكئيبة والحزينة، فشدته من ذراعه ليجلس قربها. «آسفة، أعرف أنني سببت لك صدمة كبيرة، وأفهم جيداً ما تريد قوله.»

كانت عيناه تدلان على مدى تأثره وحزنه، لكنه قال: «هذا ما أردت قوله.» وضمها إلى صدره بحنان مخففاً عنها الكارثة. وبعد أن ضمها إليه عادت بهما الذكريات إلى لحظاتهما السابقة التي كانا ينعمان بها بأسعد الأوقات.

«والآن، هل فهمت ما أردت قوله؟» سألها دانكن وعيناه لا تفارقان عينيها. لم تتكلم جانسي لكن عينيها نطقتا بالحب الكبير الذي تكنه له. «وهل تسمحين بالعودة إلى لندن كي نتزوج؟»

تنهدت جانسي بعمق ثم قالت: «أرجوك، اصغ إلي، هناك أمر آخر أود أن أخبرك به، عندما خرجت هذه الليلة نحو التلال، أردت بذلك أن أقول وداعاً لك ولكل الحب الذي في قلبي. لكنني عدت واستدركت بأن سبب خروجي كان هروباً من نظراتك التي وجدتني بشعة. كنت اعتقد أنني أحاول الهروب منك، ولكن في

الحقيقة كنت أحاول الهروب من نفسي. لقد كرهت الحالة التي وصلت إليها. وفي أول أيام وصولك إلى هذا المكان، أردت أن أنظر مراراً في المرآة لأرى مدى بشاعتي ومدى التشويه الذي ألم بي. وكانت الطريقة الوحيدة التي أعطتني القوة للصمود أمامك.»

«آه، يا جانسي، آه، يا حبيبتي التعيسة.»

«مجنونة ومعقدة، أهذا ما تقصده؟» وجاء صوتها مرتبكاً غير ثابت. «لم أعطكِ مجالاً للاستمرار في حبي، لأنه لم يعد في قلبي حب أو في نفسي كبرياء. لم أفكر بنفسي، وكأني لا شيء، ولكن في الحقيقة كنت، وبما أنني لم أكن أجرؤ على النظر إلى جسمي فكيف ستستطيع أنت؟» واغرورقت عيناها بدموع الأسى العميق. «آسفة، يا دانكن، لقد كنت فعلاً قاسية معك.»

«نعم، لقد كنت في غاية القسوة.» وأخذ يداعب شعرها النحاسي. «ومدى القسوة، كان في عدم السماح لي بمشاركتك هذه الآلام، عدم السماح لي بأن أكون قربك لحمايتك والتخفيف عنك.»

«أعرف، وآسفة.»

«والآن لنعود إلى ما كنا قد صممنا عليه.»

لم تجب جانسي بل ظلت صامتة.

قال دانكن بحدة: «ماذا هناك؟»

«علي أن أغير مجرى الحياة الجديدة التي دفعت نفسي إليها، وأظن أني بحاجة لبعض الوقت لأستعيد ثقتي بنفسي قبل العودة إليك. وإلا قد أضع اللوم عليك، وهذا ما لا أريده، فالأمر لن يكون كما كان بالأمس، ولكن...»

www.liilas.com

«بل سيكون.» ألحّ دانكن بقوة. «فأنت ما زلت المرأة التي أحببتها وأردتها وهذا ما لم ولن يتغير، وقد يكون الأمر أسهل وأنا بقربك لأساعدك.»

ابتسمت له وهي تلامس خده. «شكراً لك، ولا تخش عليّ من أي سوء. ولكن دعني أستعيد ثقتي بنفسي أولاً.»

«إذاً، اسمحي لي بالبقاء معك.»

هزّت رأسها غير موافقة.

«أنت مخطئة إذا كنت تظنين بأن هناك أي علاقة بيني وبين فيكي. لقد أردت إثارة غيرتك فقط، وليلة الأمس حاولت جاهداً كي أجذبها نحوي لتطلعني على كل الذي جرى لك. فأرجوك، يا ذات الشعر النحاسي، أن تسمعي كلامي وتعودي معي إلى لندن.»

«لا.» وكان هناك عزم في صوتها. «أريد منك أن تعود بمفردك وتنتظرني... كما أريد منك الاتصال بعائلتك وإطلاعهم على الأمر وأن تعتذر منهم نيابة عني للإزعاج الذي سببته لهم ولك أيضاً. أريد منك العودة إلى عملك، وتجهيز البيت القديم سكنانا نحن الاثنين. ولا أريدك أن تقلق عليّ. عد الآن، وسألحق بك في أقرب وقت، أعدك بذلك.»

«لا أريد مفارقتك.»

«أعرف، يا حبيبي، ولكن يجب أن تمنحني بعض الوقت.»

«لن تهربي مني مرة أخرى؟»

«لا.» ابتسمت وعادت تجلس على المقعد. «وهل باستطاعتي الهرب؟ فأنت ماهر في العثور عليّ أينما ذهبت.»

ضمّ يدها بين يديه بحرارة. «حسناً.» قال متنهداً. «سأقوم بما تطلبين مني.» وهزّ رأسه مؤكداً. «لكني سأعين موعد

الزفاف، وإذا لم تعودي إلى لندن قبل ذلك الموعد، سأعود مرة أخرى للتفتيش عنك.»

ضحكت جانسي ولأول مرة بسعادة منذ أشهر بعيدة. «حسناً، اتفقنا.»

«والأفضل أن تضعي هذا.» وقام نحو معطفه وتناول من جيبه خاتم الخطوبة ودفعه في اصبعها.

حدقت به والدموع في عينيها. «هل كان الخاتم معك طوال الوقت؟»

«طبعاً، لقد كان معي وكنت واثقاً بأني سأعيده إليك.» انفجرت جانسي باكية فجذبها نحوه باحكام. «أنا لست ذاهباً الآن. بل سأذهب غداً. أريد أن أبقى بجانبك وأشعر بدنوّك مني.»

أمضيا سهرتهما قرب المدفأة، وهما يتبادلان الأحاديث حول علاقتهما وحول المستقبل الزاهر الذي ينتظرهما، متناسيين الماضي وشجونه.

غادر دانكن في صباح اليوم التالي مصطحباً معه فيكي. راقبت جانسي ذهابهما بصمت، ثم دخلت لتبدأ رحلة استعادة ثقتها بنفسها.

حاولت جاهدة أن تنظر إلى شكلها في المرآة كل يوم لتعتاد على وضعها الجديد. وعادت تعتني بأناقتها، تسرح شعرها بجمال، وتضع المساحيق على وجهها كما كانت تفعل في السابق. كانت تجبر نفسها على هذه الأشياء، وتقوم بها من دون أي لذة. فجسدها لم يعد يهمها بعد اليوم. كان دانكن يكاتبها كل يوم، وفي كثير من الأحيان، كان يتصل بها إلى منزل روب. في البداية لم يحثها على المجيء، ولكن وبعد

www.liilas.com

أسبوعين بدأت تسمع في صوته علامات التذمر. وبعد شهر لم يعد باستطاعته الاحتمال أكثر. «لقد عينت موعد الزفاف في حزيران... وأريد أن تعودي في شهر أيار...»

أحست بأنها تخذله كما خذلت نفسها، ولكنها صرخت: «لا تدفعني، لا تدفعني.»

حان وقت موعدها مع الطبيب المختص. كانت غرفة الانتظار تعجّ بالنساء كالعادة. والأغلبية مع أزواجهن، أو صديقاتهن. أكثرهن كن متوسطات العمر أو مسنات. وسمعت إحداهن تقول بخوف: «هل أتحسن؟ وهل الذي أعانيه سرطاناً حقيقياً أم مجرد دملة وتزول؟ هل سأشفى وأتجاوز هذا المرض؟»

بعد وقت خرجت امرأة من غرفة الطبيب والدموع في عينيها والطبيب يربت على كتفها مؤاسياً. خرجت السيدة لتدخل امرأة أنيقة، طويلة القامة، كانت شابة في مقتبل العمر، أكبر من جانسي ببضع سنوات.

كان المقعد بجانب جانسي خالياً، فجاءت المرأة وجلست بجانبها. ابتسمت لها جانسي وقالت: «أخشى أن كل المواعيد قد تأخرت ساعة كاملة عن موعدها.»

«لا تهتمي، فلدي متسع من الوقت.»

التقطت المرأة مجلة نسائية وبدأت بقراءتها. وحملت جانسي مجلة وهي تتظاهر بقراءتها، بينما كانت تختلس النظر إليها وتفكر في زيارتها الأولى للطبيب المختص، حيث لم يكن هناك أحد لينذرها بالأمر الفظيع الذي ستواجهه. وشعرت بأن الواجب يحتم عليها إعطاء هذه المرأة المسكينة كلمة تشجيع. «أرجوك، أنا لا أقصد التدخل في شؤونك أو أي شيء آخر... فإذا دخلت

إلى الطبيب وأنذرك بخطورة وضعك، أرجو أن لا تخافي. فلن تكون نهاية العالم إذا أجريت عملية نزع الثدي. إنهم يجرون هذه العملية من أجل خلاصك... إنهم...»

«أعرف هذا جيداً.» قاطعتها السيدة الصغيرة بهدوء.

«أريد فقط أن...» لكن جانسي توقفت عن كلامها. «أنت تعلمين؟»

«نعم، لقد أجريت هذه العملية منذ سنتين.»

حدقت جانسي بها غير مصدقة. «ولكن هذا غير معقول. أنت تبدين... في غاية الثقة والاعتدال، و... وأنيقة.»

«طبعاً.» ونودي باسم جانسي فهمست السيدة الصغيرة: «عندما تنتهين، ما رأيك بتناول فنجان قهوة سوياً؟»

ارتبكت جانسي وهي تلبي الدعوة.

«عشرة على عشرة.» قال الطبيب المختص، بعد أن أجرى لها الفحص اللازم. وشعرت جانسي بالراحة تغمرها.

وقفت السيدة الصغيرة لها عندما خرجت من عيادة الطبيب المختص. «اسمي لين هيث. توجد كافيتيريا في المستشفى، قهوتها ليست جيدة، لكن على الأقل باستطاعتنا التكلم قليلاً.»

عندما جلستا حول الطاولة، قالت لين: «لقد تم نزع ثديك أنت أيضاً، أليس كذلك؟»

«نعم في أيلول الماضي.»

«لكنك لم تتجاوزي بعد هذه المحنة.» وهزت جانسي رأسها تنفي. «هل أنت متزوجة؟» ونظرت إلى أصابع جانسي.

«لا، أنا مخطوبة الآن.» ونظرت إلى خاتم دانكن وفجأة رأت نفسها تحدثها بأنها كانت عارضة أزياء وقد تخلت عن كل شيء.

www.liilas.com
المعرفة من أجل الجميع

«عظيم، لقد كنت عارضة أزياء.» قالت لين. «ولما لا تمارسين مهنتك الآن؟ ولماذا لا تتزوجين؟»

«وهل من المعقول؟»

ضحكت السيدة الصغيرة. «ما الذي يوقفك؟ أما بالنسبة إلي، فشريكي لم يرفضني وأنا على هذه الحال.»

«شريكك؟ آه، فهمت ماذا تقصدين. لقد كان متفهماً ومتقبلاً للأمر الواقع.»

«لم أكن قد تعرفت عليه في ذلك الوقت. لكني التقيته بعد إجراء العملية، ولم يكن الرجل الأول في حياتي.» ثم تابعت بفخر واعتزاز: «إنهم محظوظون بالتعرف إلي، وبالنسبة للأزياء، فهل أبدو أو تبدين بثدي واحد؟ طبعاً لا ولا أحد يستطيع معرفة ذلك. فعندما خسرت ثديي، صممت على أن لا يتغير شيء في حياتي وهذا ما عليك القيام به. لماذا ترتدين هذه الملابس المهلهلة والقديمة؟ يجب أن تفتخري بجسدك، وأن لا تخجلي منه. ولا تكرهي نفسك، فمرض السرطان ليس بحكم قاتل، فقد أصبح مرضاً يمكن الشفاء منه. فلو كنت مصابة بداء الرئة، لا تستطيعين التجول على هذه الصورة، فلماذا تعاملين نفسك بهذه الطريقة؟»

قالت جانسي مبتسمة: «الأمر يختلف.»

«نعم، إنه يختلف.» وافقت لين وضحكت بملء فمها. «والذي قمنا به يشبه الزواج، فهناك حياة من بعده!» واقتربت منها هامسة: «وكما تعلمين، هناك مجازفة في الأمر، ولكني عقدت العزم بأني لو قدر لي الموت، سوف أتمتع بكل لحظة من كل يوم باقٍ لي في هذه الحياة. إنه الحل الوحيد، يا جانسي، يجب أن تسيري حياتك ولا تدعي الخوف يُسيرك ويتلاعب بك.

والحظ بجانبنا، ففي كل يوم يكتشفون علاجات جديدة ضد هذا المرض.»

«نعم، أعلم ذلك وشكراً لك.» قالت جانسي بامتنان ومحبة للسيدة الصغيرة.

رشفت لين ما تبقى من فنجان القهوة ثم وقفت. «يجب أن أعود إلى غرفة الانتظار، لقد سررت بمعرفتك، هل أراك في موعدك المقبل؟»

وقفت جانسي على قدميها وقالت: «لا، سأعود إلى لندن، إلى منزلي.»

بعد عدة أيام، رن جرس الهاتف في مكتب دانكن، فرفع السماعة دون اكتراث متابعاً تركيزه على الرسم الذي بين يديه.

«دانكن ليل.»

«مرحباً، يا دانكن ليل، هل ستكون حراً هذه الليلة؟»

«جانسي!» وسقط القلم من يده، ثم استوى في جلسته، مبتسماً بسعادة أضاءت وجهه. «أين أنت؟»

«أجب فقط على سؤالي.»

«نعم، أنا حر، أنا حر حتى آخر يوم من حياتي.»

اهتزت طرباً. «عظيم، فقد يستدعي الأمر كل هذه المدة.»

«من أجل ماذا؟»

جاء صوتها حنوناً رقيقاً: «لترى كم أنا أحبك.»

لم يستطع تمالك نفسه فصرخ: «جانسي أين أنت؟»

«في لندن، وفي شقة فيكي التي ذهبت في مهمة لبضعة أيام.»

«سأكون عندك في الحال.»

www.liilas.com

«لا.» قالت بسرعة. «لماذا لا تنظر من نافذة مكتبك؟»

«ماذا؟» ونهض بسرعة من مكانه لينظر إلى الخارج. ولوحت له جانسي بيدها من غرفة الهاتف في الشارع المقابل، وهي بحلة جديدة ممتلئة بالحيوية والنشاط.

«وما الذي تنتظر؟ أسرع.»

كان بجانبها في مدة لا تتجاوز الدقيقتين، مسرعاً نحوها ليحتضنها بذراعيه. ثم أخذ ينظر إليها باعجاب ودهشة. «تبدين رائعة! ماذا جرى لك؟»

ضحكت بسعادة. «لقد قابلت الملاك الحارس.»

«حسناً، فأنا مسرور لذلك، إنك مذهلة.» وأمسك يدها. «إلى أين تريدين الذهاب؟»

«إلى شقة فيكي طبعاً.» وابتسمت ابتسامة طيبة. «فعلينا التباحث بالأمور الهامة.»

«معك حق.»

عندما وصلا إلى الشقة، التفت إليها ليقول: «هل أنت متأكدة؟ من أمر الزواج؟»

شعّت عيناها بفرح. «نعم، هذا إذا كنت أنت متأكد أيضاً.»

«لقد كنت دائماً متأكداً منه.» وأمسك بيدها يقبلها بحرارة فقالت له: «هل تعلم بأن المرض يمكن أن يتكرر؟»

«نعم، لقد قرأت الكثير عنه.»

«لكن النتائج غير مرضية.»

شدها إليه بحنان قائلاً: «سوف نجعلها سوياً مرضية وسنتمكن منها بإذن الله. يا حبيبتي، ويا حبي الغالي.»

تمت

www.liilas.com